الأعمال القصصية

الأعمال القصصية

حسن النعمي

بين يدي الكتاب

هذا هو الكتاب الرابع من كتب اللجان الثقافية، تقدمه اللجنة الثقافية في رجال ألمع ليصدر ضمن مطبوعات نادي أبها الأدبي، وليكون إضافة نوعية إلى تجربة اللجان الثقافية، من ثلاث جهات:

- **الأولى**: أنه كتاب أدبي بلون القصة القصيرة.
- **الثانية**: أنه يجمع تجارب أحد الرواد من منطقة عسير في كتابة القصة القصيرة، وهو الدكتور حسن بن محمد النعمي، الذي استهل نشر تجاربه القصصية بمجموعته «زمن العشق الصاخب» 1404هـ/ 1984م، وبذلك فهو يعد من الجيل الأول من كتابها في المنطقة.
- **الثالثة**: أن هذا الكتاب يجمع الأعمال القصصية التي صدرت للكاتب، وهي ثلاث مجموعات: المجموعة المذكورة آنفًا، ومجموعتان هما: «آخر ما جاء في تأويل القروي» 1407هـ/ 1987م، «وحدّث كثيب قال» 1420هـ/ 1999م. وهذا يهيئ للقراء الاطلاع على التجربة القصصية الكاملة للكاتب حتى تاريخه، ويسهل على عشاق القصة والمهتمين بدراستها الاتصال بتجربته.

ونرجو أن يكون في ذلك خدمة للأدب والأدباء وللكتاب

السرديين على وجه خاص في منطقة عسير، شاكرين للزملاء أعضاء اللجنة الثقافية في رجال ألمع جهودهم المباركة، وللأستاذ الدكتور حسن النعمي ثقته وتعاونه مع النادي ولجانه...

د. أحمد بن علي آل مريع
رئيس مجلس إدارة نادي أبها الأدبي
المشرف العام على اللجان الثقافية بمنطقة عسير

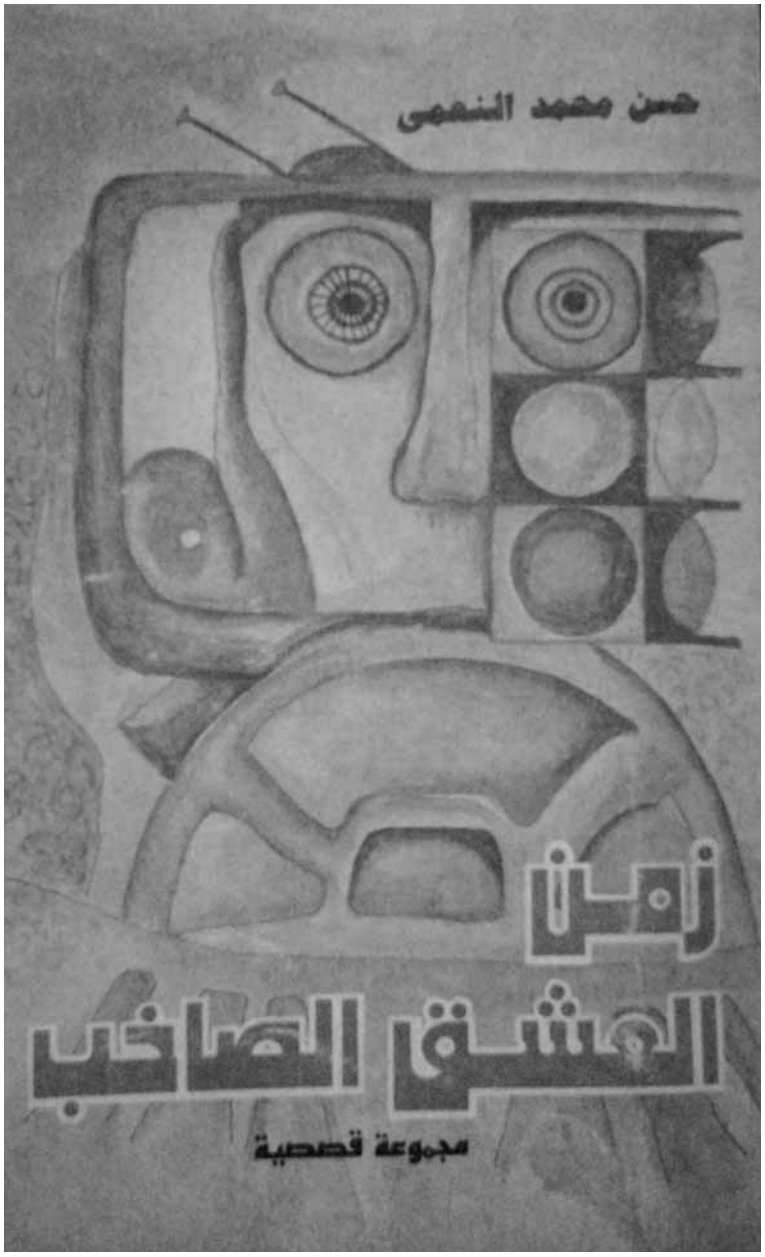
حسن محمد النعمي
زمن
العشق الصاخب
مجموعة قصصية

المحتويات

زمن العشق الصاخب

إهـداء 11
مقدمة 13
لحظة انطلاق 15
العودة 23
سقوط الجسر 27
دوائر زمنية 33
فصول من رحلة التعب 39
الركض في دائرة المجهول 45
مخاض الساعات الأخيرة 51
زمن العشق الصاخب 55
حمى الأزمنة المجدبة 61
البوح بأسرار الكآبة 67
إضاءة 73

إهـــــــــداء

إلى إنسان قريتي...

في زمنه الأول..

يوم كانت اللقمة.. أسطورة متمردة.

حسن النعمي

مقدمة

القاص الشاب، صاحب هذه المجموعة المختارة، من المواهب الفتية التي نشأت مع مولد هذا النادي. شارك في مسابقاته الثقافية وحاز إنتاجه قصب السبق بالدرجة نفسها التي حظي بها في مسابقات أعدت من بعض المؤسسات الثقافية الأخرى.

وهذا مثال حي على الدور الإيجابي الذي عكسته عطاءات الدولة الرشيدة في مجال التنمية الشاملة وعلى رأسها الاهتمام بالإنسان السعودي وتطويره ثقافيًا واجتماعيًا.

وهذه المجموعة القصصية إضافة جيدة يسعدنا أن نقدمها إلى القارئ الكريم ـ كما هي ـ ليتصفحها ويحكم عليها بحيدة وتجرد.

(إدارة النادي)
1984م

لحظة انطلاق

أخرست جرس الساعة بعنف. لعنت جرأته غير مرة.. «تبًا له إنه يحرمني لذة النوم كل صباح». تساءلت في بلاهة.. «وماذا أعمل؟» ضاعت الإجابة في التثاؤب الذي كاد يعيدني إلى النوم. تمطيت بحركة آلية. تحاملت على قدمي، ونهضتُ في تثاقل. ألقيت نظرة على الساعة في معصمي، لقد تجاوزت السابعة. أحسست بالجوع يقطع أمعائي. تذكرت أني لم أتناول عشائي. قررت الذهاب إلى المخبز. لبست معطفي الأسود. في الخارج كان البرد يلفح وجهي، والرؤية غير واضحة جراء الضباب المنتشر في أجواء المدينة.. تراجعت إلى الداخل. وسيلة الإغراء تبدو أكبر. هنا الدفء وفي الخارج برد قارس.

نفسي تتمزق بين البقاء وعدمه. الهزيمة أحيانًا تبدأ بالتردد. يجب أن أنفذ قرار الذهاب إلى المخبز استجابة لرغبة في نفسي. مازلت ضعيفًا أمام الاختيار. «أُف.. ما جدوى التردد!». الجوع يحسم عامل التردد. انطلقت أسبح في موجة من الضباب رغمًا عني. لو انتظرت متى أقرر فلا أعرف كم يلزمني من الوقت.. لعلي أحب الروية والأناة. «لكن ماذا تسمي التردد في فعل ما تحب؟» «تبًا لهذه الخواطر السخيفة!».. انقطع تيار أفكاري عندما سمعت أصواتًا ليست

بعيدة كما يبدو، لكني لم أعرف مصدرها على أية حال.. مجال الرؤية من حولي يبدو ضعيفًا. أسرعت. ها هو المخبز.. الأصوات ترتفع. هناك من يتوسل بحرارة، وهناك من يتذمر من طول الانتظار. اقتربت من الخباز بعد جهد مرير:

- ثلاثة أرغفة من فضلك.

قال أحدهم في وقاحة:

- الزم دورك وإلا...

قلت في نفسي:

- أكمل أيها الجبان، وإلا ماذا؟!

نظرت إليه. عيناه حمراوان. يجب أن أبتعد عنه. مر الوقت في تثاقل.

قال الخباز بعد طول انتظار:

- تفضل خذ الخبز وهات الثمن.

دفعت الثمن، وحملت الخبز، وانطلقت مسرعًا.

في الطريق رأيت الفوال يباشر عمله. تذكرت. لقد نسيت إناء الفول.. «لا يهم فعندي في البيت بعض الجبن». هذا هروب جيد من المراوغة المضنية. تعاملت مع أحد الأرغفة دونما حياء. الجوع دائمًا يحدث تصرفات غريبة. وصلت إلى البيت. كنت قد أخرست شراهة الجوع في معدتي.. وضعت ما بقي من الخبز في مكان آمن، استخدامه فيما بعد أمر ضروري. هكذا علمتني أمي.. «آه.. أين أنت يا عزيزتي. ابنك الآن يدفع ثمن هروبه اللئيم.. الوحدة القاسية تكاد تمحو وجودي». قالت لي يومًا:

- تزوج تجد الراحة.

وافقت في البداية.. وبعد فترة قلت:

- لا!!

أذكر أن أمي قالت يومذاك في توسل:

- لا تخذلني يا ولدي، أنت أكبر أبنائي، أريد أن أفرح بك قبل أن أودع الحياة.

لم أجبها.. وهربت.. لا أعرف لماذا أمارس الضعف؟ كان يجب أن أجد تفسيرًا لرفضي.؟ اللعنة على ذاك الصديق الحقير. أذكر أني حملت إليه فرحتي العذراء، فبعثر أحلامي بتجربة مارسها حينما قال:

- الزواج قيد لين، لكنه أقوى من قيد الحديد، فكَّر قبل أن تطأ بقدميك الرماد المحترق.

يومذاك انداحت رمال الهزيمة في أعماقي. مقصلة الخوف مزقت طموحاتي. تمرغت في هستيريا الألم.. مارست السير بعصبية فوق الشوك، وتحت سماء الهجير. أخيرًا قررت الرحيل. الرحيل إلى معاناة أشد. ما أقسى ذلك اليوم!

توقفت عن التفكير، عندما أجفلني صوت قدم من الخارج. كان صوت بوق سيارة حادًا.. أشعل اليقظة في ذاكرتي.. عجيب أمري. أمارس التفكير بغير إرادة.. الوقت يمضي. لا أكاد أحس به.. التمزق في الأعماق غفوة يمارسها الإنسان دونما إدراك. أسرعت في الذهاب إلى عملي. في الخارج، كانت الشمس قد بعثرت غلاف الضباب الكثيف. سلكت أقرب الطرق بين الأزقة الملتوية. كان فيها حركة بدائية.

لقد ألفتُ هذا الطريق. ألفتهُ بمنازله الشعبية الرائعة التكوين. أشد ما يؤسفني عندما أرى أحدها يسقط. نحن بني الإنسان نقسو على الأشياء المسخرة لنا. نزعة دكتاتورية نمارسها حتى في أعماقنا.. الويل لك أيها الإنسان.. كم حطمت في سبيل إشباع رغباتك؟ وفي النهاية تكون عبدًا لشهواتك.

أفقت عندما وجدت نفسي في قلب الضجيج. دلفت إلى مكتبي. استقبال يقتل النشوة في الأعماق. كانت نظرات المنتظرين تلسع جسدي. انهمكت في عملي. عملت حتى كلَّت يدي. شعرت بإرهاق شديد مصحوب بصداع مؤلم. تحاملت على نفسي، وذهبت إلى المدير، وصلت إلى مكتبه. اندفعت في جرأة فقدتها لحظة وقوفي بين يديه. وقفت أحدجه بنظرتي البلهاء. رفع رأسه في كبرياء. كان ذلك متوقعًا. لا أعرف أي شعور يكنه لي. مؤكدًا أنه يتعمد إهانتي. فكرت. لا شيء ينصفني من هذه الإهانة سوى الهرب. اللعنة لماذا أصرُّ على ممارسة الضعف؟! الاستقالة كلمة مهذبة. إني أهين نفسي بنفسي. جاء صوت المدير، أشعل الرهبة في قلبي:

- قل ماذا تريد.. يا...؟

أوه.. هذه إهانة لا تطاق. حتى اسمي لا يريد أن يجري على لسانه. ماذا عملت سوى أني تأخرت قليلًا؟ ليعاقب نفسه أولًا. ساعات يقضيها خارج المكتب يوميًا. قلت بصوت مشروخ:

- أريد إذنًا بالذهاب إلى المستشفى يا طويل العمر.

جاءت كلماته تضج بالغضب:

- قل لي أولًا، لماذا تأخرت هذا الصباح؟

تهيأت للرد.. لم يمكنّي من ذلك، حين قال في إهانة أشد:

- انصرف إلى مكتبك يا عديم القيمة.

تراجعت ونفسي تنضح بالألم. موقفي المهزوم سلب مني القدرة على المقاومة. منحت نفسي شيئًا من الصبر. بالأمس حملت إليه خطاب توصية حتى يتكرم بقبولي موظفًا لديه.. واليوم ألومه وأشتمه على موقفه. فكرت لو أنه تساهل معي هذه المرة كما كان يفعل فيما مضى، فلن يجد مني أي نفع. كتمت مشاعر غيظي. وأطفأت ثورة نفسي، وعدت إلى مكتبي، حتى كان موعد الانصراف فأرسلت قدمي مع الأقدام اللاهثة على الرصيف العريض. أثناء سيري تداعت إلى ذاكرتي خواطر مبعثرة. تذكرت ما ينتظرني في البيت.. صنع وجبة الغداء. والشاي إذا أردت، ثم الانتظار بعد ذلك حتى تتم العملية. أكون لحظتئذ أغط في نوم عميق.

آه.. لو أني تزوجت من زمن! كنت أجد الطعام اللذيذ. وأحس بالنوم المريح. وأعيش في لحظة حب وهناء. ما لي وهذا العذاب. حقًا الزواج نعمة لا نقمة.

فجأة مرقت من جانبي سيارة كالسهم. جمدت في مكاني من شدة الخوف. أسندت ظهري إلى عمود كنت أقف إلى جانبه. في لحظة كان قلبي يرقص في قفصه. كانت سلامة لا تصدق. ما ذنبي وأنا الضعيف أذهبُ في لحظة تهور الآخرين. عاد إليَّ سكوني، فمشيت مصحوبًا بالحذر. في نهاية التسارع،

تسلقت رائحة الشواء أنفي بقوة. الرغبة في الأكل أغرتني بالدخول إلى المطعم. سايرت رغبتي ودلفت إلى جوف المطعم. كانت العيون تنضح بالفضول.. جلست إلى مائدة في إحدى الزوايا ألتهم طعامي بشراهة.. كان الطعام دسمًا فأتخمني. حمدت الله بعد أن دفعت الثمن.

عدت إلى البيت منهوك القوى. منحت نفسي فترة راحة. نمت خلالها نومًا عميقًا متقطعًا. نهضت بعدها، فأديت صلاة العصر. ثم خرجت أنشد النزهة. تذكرت يجب أن أزور صديقي. قصدت منزله. قبل أن أصل، اكتشفت أن صديقي يستعد للخروج، فتواريت خلف أحد الأعمدة. كان صديقي يحمل بين ذراعيه طفلًا، ومن خلفه امرأة ذات قوام ممشوق.

إنها زوجته.. وذاك ابنه، ما أسعده! استقلوا سيارة صغيرة. وانطلقوا في نزهة جميلة.. هكذا خُيِّل إليَّ.

إحساس غريب ملأني بالحسرة والندم. آه. لو أني قبلت فكرة الزواج. كيف لم أتزوج وقد تجاوزت سن الثلاثين؟ تجرعت مرارتي، ومشيت إلى وجهة غير معروفة.. كنت أترنح كالثمل. أطوي أرصفة الشوارع تحت قدمي. لا أكاد أحس بالأشياء من حولي، حتى صخب الطرقات لم يعد يقلقني. آه.. من هذا الفراغ القاتل! حقًا هكذا تكون لحظة التمزق والضياع.

عندما بدأت ظلمة الليل تنداح في أرجاء المدينة. أعطيت خطواتي ـ المتعبة من السير الطويل ـ نشاطًا أكثر.. وفي اللحظة نفسها بدا نور الكهرباء يئن تحت ستار الليل المعتم.. رأيت خلال ذلك طفلة تجري لاهثة. تضم إلى صدرها زجاجة متوسطة الحجم.. كانت الطفلة جميلة. عرفت ذلك عندما اقتربت مني.

فجأة تعثرت الطفلة في ثوبها الطويل، لتسقط الزجاجة من يدها، وينساح منها سائل أصفر. يالحظها العاثر! دنوت منها. رفعتها من على الأرض. آلمني منظر الدموع التي جرت على خديها.

سألتها في تودد:

ـ ما اسمك؟

لم تجب، بل دبت حمرة الخجل في وجنتيها، فغطت بكفيها الصغيرتين وجهها. أشفقت عليها، بل أحسست في نفسي ما هو أعمق من الشفقة. أجل لقد أحببتها. حملتها في رفق إلى الدكان الذي خرجت منه. لمعت في عينيها نداوة الفرح حينما عوضتها عن زجاجتها المكسورة. ودعتها بنظراتي وهي خارجة حتى توارت داخل منزل صغير. وأنا الآخر سرت حتى ضمتني جدران الوحدة والفراغ. استلقيت على فراشي، ورجوت النوم أن ينادمني فاستبد بي القلق، لتدور خواطري التي فرضت عليَّ تفكيرًا معينًا.. «مم تخاف؟ يجب أن تحسم الموقف. مد الخطوة أكثر. أنت تحب الأطفال إذن تزوج».

ارتاحت نفسي لهذه النتيجة. وأيقنت أني عرفت طريق الصواب فكانت لحظة انطلاق. افترشت معها أحلامي الملونة كأذرع الشفق الأرجواني في انتظار الصباح الجديد.

العودة

في عالم مفتون بكل ما هو براق، انزلقت قدماي عبر طرقاته الملتوية.. أشياء أغرتني بالتأمل والإغراق.. دنيا حافلة بالملذات. وقفت عند نقطة الصفر. الحيرة والتمزق، وصعوبة الاختيار، صراع أدخلني في أعماق اليأس. إما الاستسلام وإما الرفض.. نقيضان متنافران. في فكري يرقص أكثر من تساؤل. المدينة بكل ما فيها مثيرة ومدهشة، ومع ذلك فهي لا تعنيني في شيء.. ريفية أنا. يجب أن أحفظ قول جدتي.. «عودي صبية وبفية في كفها الحناء نهر دماء». أسوار ضبابية تلتف حول قلبي، رؤية غائمة في كل الاتجاهات.. تفكير محدود، ورغبة مجهولة الأبعاد. الآن أقف عند مفترق الطرق. هل أدفن وجهي في أحشاء هذا العالم المجهول؟. هل أبقى صامدة في وجه الريح العاصفة؟

حتى الآن مازلت عاجزة. ما جدوى التساؤل! إغراء مثير إلى حد الجنون، حب الاستطلاع نزوة أحسستها في نفسي. لتكن التجربة خير برهان.. مضيت مع حسناوات المدينة.. قالت إحداهن لي:

- جميلة أنت.

- شكرًا.
- تزيني أكثر.
- كيف؟!
- مثلي.
- وماذا تفعلين؟

محاولة الغوص تبدو صعبة. لم أكن في يوم ما قد رأيت تضارب الأمواج، لذلك وقفت أنظر في صف المشاهد. أثارتني كيفية اللعبة.. فن العوم في محيط التجربة شيء في غاية الصعوبة. في غمرة ما أرى أدليت دلوي.. نسيت قول جدتي. لم أعد أذكر أني ابنة قرية لها طابعها المتوارث. غجرية أنا. لم أكترث. وغسلت كفي من حمرة الحناء. وصبغت وجهي بمسحوق جديد. وبترت ضفيرة الشعر الطويلة.. ثم وقفت أمام المرآة. رأيت الصورة بإطار جديد، وملامح تناسب هذا العالم المفتون. إحساس بالخوف كان يتمطى في صدري. كان ما يعيد السكينة إلى قلبي وجودي بين نساء المجتمع المخملي، وموضة الأزياء الباريسية تغمر أجسادهن.

مع الأيام أطربتني هالة الضوء الساقطة في أعماق حياتي. ارتقيت درجات السلم. الصعوبة في البداية لم تبدد رغبتي. فيما بعد ألفت فنون اللعبة، لتصبح المهارة سمة من سماتي. لم أكن أفكر في الريف الذي تركته بالأمس. أصبح بالنسبة إلي ماضيًا لا تطربني ذكرياته، لكن ما يجعلني أقلق من حين إلى آخر، مصيري المحتوم. هناك في محطة البعد. وقف شاب يتجشأ مرارة الانتظار، يقلقه رحيلي. عارض في البداية مواصلة دراستي

الجامعية. . وبالمنطق أخذت موافقته. جدتي أيضًا أرادت أن تضمن ولائي لبلدي. كم أشعر بالحزن عندما أتذكر أن لي خطيبًا ينتظر عودتي. قيد لا أحتمل مقاومته. . الحرية التي كنت أنشدها ضاعت يوم قررت السفر لمواصلة الدراسة. خطيبي المزعوم كم أضناه التوسل. يرجو الموافقة. لم أكن في حاجة إلى مثله. تنقصه أشياء كثيرة. وما يجعلني أرفضه من كل قلبي ـ رغم موافقتي في الظاهر ـ روحه الاستسلامية. فهو لا يريد أن يتعب من أجل الحصول على ما يريد. أغلب أيامه يعتكف في بيته، يرجو السماء أن تمطر ذهبًا وفضة. الحياة بهذا المنطق موت بطيء. والأسوأ أن نرفض مقاومة العجز الكامن في أعماقنا.

رغم إدراكي الكلي لما يجري لم يأسر خواطري ضيق أو ألم؛ فمرساتي في البحر تمضي. والشمس تصبغ وجهي بالضياء. الريح ساكنة، والموج هامد. . حياة هادئة، ونعيم متدفق. ما بين شقائي وسعادتي خيط رفيع ترقص عليه أيامي الحاضرة. أحلام في الأفق تترجح، وآمال في النفس تتألق. . كفة السعادة أرجح من غيرها. إذن لتمضي الأيام كما أشتهي. ما تهوى النفس سيكون هو الأوفر حظًا.

بعد انتهاء الموسم الدراسي عدت والأحزان تصحبني. شعور مبهم كان يجيش في صدري. كان السد ينتظر طوفاني القادم من أعماق البعد. مؤكد أهل القرية لا يعجبهم العجب. فضولهم يلتهم جرأتي. نظرة الاحتقار مزقت كل رغبة في التطور في ذاتي. نتيجة سلبية لم تخطر لي على بال. حينذاك قال خطيبي بانكسار شديد:

- تغيرت!!
- بل تطورت.
- ونسيت من أنا؟!
- لم تكن شيئًا حتى أذكرك.

التيار قوي، وأنا لا مجداف لقاربي. بقايا الأحلام تناثرت في قاع الرفض السحيق. جدتي خرجت من حزنها لتقول لي:

- عودي كما كنت.
- صعب!
- أليس صعبًا أن يحتقرك الناس يا ابنتي؟

هنا تتساوى الهزيمة والانتصار في ميزان الرفض. هرولت كثيرًا ثم توقفت.. حاجز رهيب كسر اندفاعي وطموحي.. وقفت وحيدة في وجه الحشد الرافض. شيء مؤلم أن يعيش الإنسان الغربة في وطنه. مجتمع يرفض التعامل معي بهذه الصورة هو انتحار يومي أمام أعينهم. انهارت قدرتي على المقاومة. تقهقرت إلى الوراء. أصبحت مسكونة بذل الهزيمة.. ندم، وحيرة، وألم.. خليط من أشياء جارحة.. دبت في خاطري كالهمس.. «ماذا يبقى من الإنسان في هذه الحال؟»

أيقظ السؤال غفوتي. ذاكرتي وبكل الإيمان بالقيم عادت تلهث نحو الماضي. رأيت أطلال حياتي ترثي حالها. فكرت أن أبكيها، لكن ما جدوى البكاء. خطوة إيجابية نحو طريق العودة تكون أفضل.

سقوط الجسر

حصلت على الجائزة الأولى في مسابقة الطائف الأدبي لعام 1400هـ/1980م

لا شيء يمنحني القدرة على البقاء في البيت. كآبة تغمر كل ما فيه. ضجيج يثير الحنق في صدري. أطفال يتدحرجون في كل اتجاه. أعلنت خروجي. لمحت في الأعين المحدقة توسلًا يرجو مني البقاء. الخروج شيء ألفت ممارسته ليلًا. أسبوع كامل لم يكن لي نصيب في مجمع الأصحاب. ليكن هذا المساء ترفيهًا عن النفس. كنت فيما سبق لا أقف مثل هذا الموقف المحرج أمام أولادي. والآن وقد مضت زوجتي إلى بيت أهلها. خلفت لي أطفالًا صغارًا لا يعرفون دورهم في الحياة. منهم من هو دون الخامسة، وآخرون دون العاشرة.. وقليل تجاوزها.

اتجهت إلى المقهى. في الزاوية المعتادة اجتمع أصدقاء الجلسة كل يداعب أنبوب «الشيشة» في فمه، منهم من مد يده مصافحًا، ومنهم من اكتفى بالنظر مرحبًا بقدومي. أخذت مكاني، وفي حين جلوسي سألني أحدهم بوقاحة «هل انتهت فترة اعتكافك.؟» لم تكن لدي رغبة في الصدام مع أحد. فواصلت صمتي. ازداد تهكمهم. رأيت أني سأكون موضوع

الحديث هذه الليلة. لم أحتمل ذلك. وخرجت أهيم على وجهي. كنت كغريق وسط موج هادر. ضياع غمرني من كل الاتجاهات. السماء أيضًا كانت متجهمة، ملبدة بالغيوم توشك أن ترسل ما في أحشائها. مشيت كثيرًا حتى استقر بي المطاف عند دكان كان شبه فارغ من مواد البيع. كان العطش قد أنهكني. طلبت علبة مرطب. جلست على كرسي خشبي بالقرب من باب الدكان. فاجأني صوت البائع مستأذنًا:

- الوقت متأخر.. يجب أن أعود إلى البيت.

قلت:

- دعني أستريح قليلًا.

رد في ضيق:

- ولكن أولادي سينامون، وأنا لما أحضر لهم العشاء بعد.

تركته ومضيت لحالي. تذكرت أولادي. كنت أدرك أن مسؤوليتي نحوهم كبيرة. وكنت أحس أن هناك حجابًا يفصل بيني وبينهم. ربما لظروف الماضي وما أحدثته من تغيير في أسلوب حياتي. مازلت أذكر ما حدث قبل عشر سنوات حين قال أبي كلمته: «ستكون زوجتك ولا أريد مراجعة فيما أقول». ومضى إلى غايته. بعد ذلك تعلقت بأهداب الرجاء. حاولت تمزيق رداء القسوة الذي نشره في طريق حياتي. رفضت، ولكن رفضي كان صرخة مكتومة. كنت أعلم أن كلمة واحدة منه تحدد مصيري. لذلك ركبت زورقي المائل وأبحرت. كان الجو غائمًا.

رفيقة دربي كانت مستسلمة لمصيرها. أذكر يوم تزوجتها. كان ذلك اليوم نقطة سوداء في حياتي. عشت معها بهيكلي

العظمي فقط. كانت امرأة واجب، بيتها نظيف، طعامها وشرابها وفيران. هناك شيء بحثت عنه ولم أجده. إذا كنا نُقر أن المرأة خليط من أحاسيس مرهفة، ومشاعر صادقة، وعاطفة متألقة فزوجتي شذت عن هذه القاعدة. ربما بإرادتها، وربما بغير إرادتها. حياة ضبابية عشناها في بيت كئيب. أطفال يفدون بغير حساب. حتى صار منهم تسعة. عندما كنت أحاول أن أتكيف، أو أتقرب إلى زوجتي تمتد بيننا مسافات شاسعة، تكون حبلى بكل علامات الرفض المحتوم. لا أدري ما سر ذلك!! هل لأني غير راضٍ عن هذه الزيجة؟ أم لأن زوجتي لا تعطيني فرصة لنخلق جوًا من الوفاق؟ كنت أعجب كثيرًا منها.. لم تكن تغضب حين أتعمد أن أغيظها في أي شيء، أي اتجاه أرسمه لها تمضي فيه دون تردد. سئمت حياة الطاعة العمياء. أريد نقاشًا.. جدلًا.. وفاقًا في النهاية.

تمضي الحياة مسكونة برتابة موحشة، مع ذلك فصورة الواقع تتبدل في ذهني. شيء ما غمر ذاكرتي بتساؤلات عديدة. كنت أفكر بشكل غريب، حتى منحني هذا التفكير فلسفة خاصة بي.. ما لبثت أن اقتنعت بها. يومئذ فكرت في أشياء كثيرة. الإنسان في الحياة يمضي وحيدًا، حتى يصل إلى محطة معينة من عمره. بعدها يبحث عن رفيق دربه. كثيرون يملكون حرية الاختيار حينذاك؟ لا أدري إن كنت وجدت هذه الحرية! هل أحسن الاختيار؟ عمومًا امتلاك الشيء أفضل من عدمه. أنا في الوقت الحاضر أستطيع أن أحقق لنفسي هذه الحرية. لن ألقي بالًا لمواعظ أبي ورغباته. يكفي جحيم الماضي.

تحركت في ذاتي رغبة جارفة، لم أستطع مقاومتها. قررت أن أعبر الجسر مرة أخرى. حاولت عبوره قبل عشر سنوات، لكنني سقطت قبل أن أصل إلى ضفة الأمان. سلكت أقرب الطرق حتى أصل إلى وضع أفضل. ربما يكون زواجي فاتحة خير. جاء اليوم الذي حققت فيه ما أريد. دخلت بيتي امرأة أخرى. هي زوجتي الثانية. رسمت في خيالي حياة مشرقة، لأسرة قامت على الرضا. تخيلتُ أني أعيش تحت ظلال وارفة من الحب والسعادة.

وتأتي الأيام تحمل خيبة العمر الثانية. سراب يمتد بلا نهاية. رأيت الصورة مقلوبة. زوجتي الأولى هادئة إلى حد الإملال. والثانية صاخبة إلى حد الضجر. فجأة تحول البيت إلى مراكز قوى. حرب كلامية بين امرأتين مختلفتين في الطبع والأسلوب. أصبحت أتقلب بين سيفين حادين كليهما بتَّار.. «إلهي.. ماذا يحدث؟!» شيء مزعج أن تلفح النار وجهك كل يوم. كنت أحس ذلك فعلًا حتى فقدت طاقة الصبر الكامنة في أعماقي. كان لابد أن أحسم الموقف بشيء من الجرأة. لا شيء يهم. راحة النفس غاية أسعى إليها. الجسر الذي أرغمت على عبوره يومًا ما حان سقوطه. نعم يجب أن يسقط. حدثت زوجتي الأولى بذلك. لحظتئذٍ رأيت في عينيها نظرات الدهشة تتوهج، أعقبها التوسل والرجاء، لكن إصراري العجيب حملها على الموافقة في هدوء مؤلم.. ثم مضى كل منا إلى غايته.

فيما بعد بدأت رحلة جديدة مع امرأة ثانية. كانت تلك زوجتي الأخرى.. فتاة في مقتبل العمر، شرسة الطباع، بطولتي العنترية تضاءلت أمام حمقها وإصرارها.. «آه.. كم ظلمت

زوجتي السابقة.. كان طبعها الهادئ يثير الضيق في صدري». شتَّان بين هذا وذاك. أشعر الآن أني أقف على حافة بركان ثائر. زوجتي تريد أشياء كثيرة. ويأتيها كل ما تريد، لكنها اليوم تريد أن تقطف زهرة عمري. يبدو أن الصراع عاد في شكل جديد.. هي ترفض العيش مع أولادي، في منزل واحد. كان ذلك متوقعًا.. يكفي أني فقدت الحياة الزوجية السعيدة، التي أفنيت عمري في البحث عنها.. وعدت أندب حظي العاثر.

بعثرت جهدي محاولًا إقناعها، لكنها أوغلت في الرفض؛ ليسقط الجسر الذي بنيته عن رغبة في نفسي. لحظتئذ أحسست بالهاوية تشدني إلى قاع سحيق. صعب عليَّ أن أعيش بهذا الشكل. المعاناة الحقيقية للإنسان أن يحمل مسؤولية غيره، لكن هؤلاء أولادي. حمل مسؤوليتهم واجب قسري، بالطبع ليسوا كالآخرين.. هم دمي وروحي.. ليس لهم ذنب فيما حصل.

صحوت من إغفاءة التذكر التي انداحت في خلايا ذاكرتي على وقع حبات المطر المرتعشة فوق صدر الشارع. أسرعت في السير. كان الوقت يقترب من منتصف الليل. عندما وصلت إلى البيت وجدته يغرق في كآبة موحشة. ألقيت نظرة على الأطفال داخل الغرفة. كانوا قد فرشوا أرضها بأجسادهم. كبيرهم استأثر بالغطاء دون الصغير. غيرت وضعهم في شيء من الترتيب. وقبل أن أخرج استيقظ أحدهم، وهمس في عتاب:

- «تأخرت يا أبي».

دوائر زمنية

حصلت على الجائزة الأولى في مسابقة نادي الطائف الأدبي لعام 1402هـ/1982م

بخطوات وئيدة تركت خلفي صوت مليحة.. ينادي.. «مفتاح.. ارحم نفسك.. الزمن ليس زمانك». شيء عجيب.. ماذا تقصد؟ حمقاء هذه المرأة حين تظن أني انتهيت. أنا مازلت مفتاح الخير ـ هكذا كان يحلو لهم مناداتي ـ لم أعط صوتها المتكرر بالًا. مضيت إلى شأني عبر أزقة الحي المتعرجة.. مشيت.. يكاد الغبار يخنقني. الضجيج أيضًا يدق سمعي بشراسة.. ضجيج ماذا ياترى؟ على العموم الصوت ليس بعيدًا.. مؤكد هو في حينا.. أوه، تذكرت.. فرحان يهدم بيته.. «موضة الزمن الجديد.. بيت الطين لا يصلح لهذا الوقت. نحن في زمن الأسمنت والحديد». هكذا قال فرحان.. وفي النهاية نفذ قوله، وغيره سبقه. زينة الحي بمنازله الشعبية الرائعة التكوين. غريب أن نرى الأشياء تفقد طابعها. كل شيء يأخذ دوره.. مقهى الحي العتيق، مقهى «الركن الساخن». اسم يثير في نفسي الضحك. لست أنا فقط. زهوان أيضًا.. صاحب المقهى يعتبره نكتة دائمة.. بمجرد أن يقرأه الزبون يدفعه الفضول لاكتشاف ما خلف التسمية. اليوم نرى المقهى بشكل جديد.. واسم جديد.. وصاحب جديد.. عجائب يا زمن!

رتوش ونتوءات حادة تبدو واضحة في قسمات هذا الزمن.. هل أركض بعيدًا؟ إلى أين؟ الأماكن مثل بعضها تتغير. الإنسان نفسه يتغير. أعرف أن الزمن يسكن زوايا الأشياء. صورة تتشابك فيها ألوان قاتمة. مدُّ الزمن يلتهم شطآن الحياة. لا أتصور ما يحدث في هذا الوقت. زمن تصبح فيه التحية فضولًا. زيارة الجار لجاره تأخذ أكثر من سؤال. تبلغ بي الدهشة ذروتها عندما أتذكر ما حدث لي قبل أسبوع. زرت أحد الجيران. كان مسافرًا.. السؤال عنه تقليد متبع فيما مضى. عند باب البيت وقفت امرأة متعجرفة، في عينيها تساؤل غريب. أصبحت أشك في قدرتي، وتعاملي مع الآخرين يأخذ طابعًا تقليديًا. في البيت يؤنسني كل قديم. في الحي أمتزج بالناس بطريقة بدائية. أطرق باب ذاك. وأبدأ خيط الحديث مع كل سائر يصادفني. آه من هذا الإيقاع السريع. لم أعد أعرف أي شيء. مقارنة فاترة. زمن عشته بين الماضي والحاضر. نفس هائمة بين ضفاف متعددة. من أنا؟ حصان هدَّه طول السباق؟! لن أكون عاجزًا. أنا مفتاح الخير. هكذا وجدت نفسي رجل خير. ذلك اليوم لن يهرب من ذاكرتي. تحت زخات المطر سرت بنشاط غير معهود. لست أكره المطر، إنما يضايقني بلل ملابسي. لجأت إلى السير تحت شرفات المنازل. أثار انتباهي صراخ مرتفع. دعاني فضولي لطرق الباب. عندما انفتح الباب، وقفت امرأة تنظر بعينين دامعتين فيهما حيرة وألم. لم أكن في حاجة إلى السؤال. جاءتني استغاثة مفعمة بالحزن.. «ابني احترق.. الماء الساخن مزق جلده».. حملت الطفل بين ذراعيَّ.. في الشارع كانت قدماي تخوضان في مستنقع المياه.

نشوة غريبة أعطتني شعورًا بالفخر. كان أنين الطفل يتصاعد، حتى وضعته أمام الطبيب، حينذاك أحسست أنني أقوى رجل في العالم. فعل الخير قوة لا يقدر عليها كل الناس. بعد فترة أقبل الطبيب يبتسم. عرفت من ذلك سلامة الطفل. حملته وعدت إلى البيت. كانت الأم تنتظر.. القلق في عينيها أجهض الرقة والجمال. أحسست بشيء من الخجل. دعاء صادق أمطرتني به الأم الحزينة.. «الله يعطيك العافية.. يا مفتاح الخير.. يا وجه الخير والبركة». قررت أن أكون مفتاح الخير في هذا الحي. الناس في حاجة إلى المساعدة، وأنا أقدر أن أكون رجل خير.

سرت باتجاه الدكان. يبدو أني تأخرت.. ماذا أفعل؟ الكل يشدني إلى الخلف. عزيمتي تكاد تتقهقر. في خضم الرفض الجائر أحس بتعاسة الدنيا تسكن قلبي. أصبحت لا أعلم ما يحدث، كل شيء أتصور نهايته إلا موطن أحلامي.. دكاني الصغير. لا أدري إلى أين ينتهي بي المطاف. كل ما أعرفه أن لي رغبة في البقاء. تعطيني قدرة على المقاومة. مهما كانت قوة الزمن. وأنت يا دكاني.. هل تعرف شيئًا اسمه الزمن؟! لا أريدك أن تعرف ذلك، ولكنهم أرادوا ذلك.. زوجتي مليحة، وابني، وسكان الحي. لا أصدق.. مليحة، وولدي يرفضان سعادتي. سعيد مادمت بين جدران دكاني.. هما يعرفان ذلك.. ولكن!! ليلة أمس أعلن ابني تقززه حين قال: «أبي.. الدكان وصمة في جبين مكانتي. أنا أعطيك ما ترغب فيه. ارحم كبريائي فقط». حديث فاق تصوري، ألقى في نفسي كآبة موحشة. بهذا أكون وصلت إلى خط النهاية.. مَنْ؟ أعز الناس إلى قلبي. لن يكون ذلك مقدمة لهزيمتي. أستطيع أن

أرفض. هناك زوجتي لا شك أنها تفضل بقائي منتصرًا. بعينين فيهما الرجاء ألقيت نظرة على مليحة. لو أعرف ما يدور في نفسها.. آه يا مليحة.. يا مليحة الزمن الأول.. أنت ترين أن أشياء هذا الزمن تفقد عذريتها. يبقى شيء واحد، أطلبه منك. لم يسعفني الوقت. فاجأني صوت متهدج.. «اخرج من التابوت».. مليحة تقول ذلك؟ خيبة العمر حلت بي. لا أصدق. من الدكان دفعت مهر مليحة، ومنه أهديت إليها عقدًا من الفضة.. ومنه عشنا سلاطين في زماننا.

وصلت إلى الدكان. دلفت إلى جوفه. كل شيء فيه يحمل ذكرى عزيزة على قلبي. بابه الخشبي، جدرانه الترابية، رفوفه المهترئة، حتى دكة الجلوس في الخارج.. وقت الأصائل يطيب الجلوس. وإبريق الشاي المعطر بنعناع مرزوق يدور بيننا. والكل يصغي إلى حكايات زهوان المضحكة. نسيان ذلك محال. صور تلمع في ذاكرتي. أطفال الحي.. صبايا الحي.. عجائز الحي.. كيف أنسى هؤلاء؟ رواد دكاني.. آه.. أيها الزمن. حبل الذكريات يمتد طويلًا. يتلون بلون الأفق. الغروب دائمًا يثير التساؤل. هل أعترف؟ بماذا؟ بقدرة الزمن. الأعتراف ضعف، وأنا لا أملك صيغة الأعتراف. في أعماقي شيء يرفض الاستسلام، يمنحني تفاؤلًا مستمرًا. يعطي قدمي رسوخًا أكثر.

في الخارج، أصوات مرتفعة أغرتني بالنظر. جماعة من الناس تحمل أجهزة غريبة على نظري.. أشرطة قياسية.. تمتد طولًا وعرضًا.. فجأة.. اقترب أحدهم من باب الدكان. رسم باللون الأحمر.. دائرة تتشابك فيها عدة خطوط.. ابتسم وقال:

- هل أنت صاحب الدكان؟
- نعم.
- مبارك عليك.
- ماذا؟
- الدكان سيدخل ضمن مشروع التوسعة للشارع.

فصول من رحلة التعب

أغلقت باب الغرفة بعنف، أسرعت إلى فراشي. استلقيت، وبدأت أفكر. أشياء كثيرة انداحت في ذاكرتي.. من أين أبدأ؟ أفكار مجهولة الأبعاد، وخواطر مفعمة بالأسى. وجدت نفسي أغوص في أعماق الحيرة. في هذه الليلة بالذات مُنِيتُ بفشل جديد. إحباط من نوع فريد. كل الأشياء تتساوى في نظري. طعم الهزيمة مألوف عندي. أغلى شيء في حياتي فقدته قسرًا. «بدرية» زهرة العمر. الحلم المشنوق في ساحة الانتظار أفقدني التوازن. خيط رفيع كان يشدني نحو بدرية. اليوم مضت.. قطعت الخيط.. شروق جديد، غمر حياتها. الآن فارس الأحلام يركض بين يديها. وأنا هنا مشرد في زوايا المجهول. أتجشأ مرارة الهزيمة. فكرت. يجب أن أخلق لنفسي موقفًا جديدًا. لن أكون عاجزًا بعد اليوم. يكفي أني عشت مسحوقًا تحت أوهام الهوى. «اللعنة.. مازلت أسمع صوت الطبل اللعين». الناس في فرح وأنا أسبح في ليل مشحون بالكآبة. ماذا جنيت لتنهار منارة أحلامي تحت مظلة الوعود. وجدت الفرح يولد في ذاتي، فرح مرهون بوعد مرتقب.. والد بدرية.. قال لي: «هي لك عندما تكمل دراستها»، لكن واقع اللحظة ألجمني.. وقفت مستندًا إلى جدار الخيبة.. الدهشة تصبغ وجهي.. «أي خير هذا؟». حالة من الرفض عشتها.. لا

يمكن أن يحدث ذلك. وعد الحر دين عليه. والد بدرية رجل يعرف الأصول، ثم إن بدرية لما تكمل دراستها بعد. هذا ما دار في ذهني. تحليل بدائي، لشيء مفاجئ، لكن الدهشة توارت ليحل الألم الذي سحق نفسي. أي شيء يمكن أن يحدث إلا أن أتلقى إهانة بهذا الشكل الصارخ. من المؤكد أن ما حدث خيانة.. أجل. خيانة لحبنا.. لعهدنا.. «آه يا بدرية.. هل يرضيك هذا الأمر؟»

في الخارج.. صوت الطبل اللعين يزداد شراسة.. هل هذا تحد؟ يجب أن يكون موقفي صلبًا.. «عليك الرحمة يا أبي».. مازلت أذكر قولك. «واجه قدرك بنفسك». قررت أن أخرج إلى حلبة السمر. في الطريق عشت حالة من التردد. بأي صورة أظهر.. بصورة المهزوم وأبقى نكرة وسط الناس. أم بصورة المتحدي وأبقى مثار سخرية للحاضرين. لم أرض بهذا التصور المهزوز. لست أنا هذا الخليط العجيب. ودار في رأسي سؤال بليد.. «ما سبب هذا التردد؟» ربما الخوف.. الخوف من ماذا؟ لست أدري.. تبًا لهذه الخواطر السخيفة. ألا يكفيني ما أعاني؟ فجأة وجدت نفسي، أنكمش خلف جدار شبه مهدوم. أرسلت نظري، الناس في نشوة غامرة.. رقص وطرب، أصوات متناثرة.. ضحك يعلو ويهبط، كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل. حينذاك رأيت موكبًا من السيارات تتقدمه سيارة فارهة. لحظتئذٍ أحسست بأكثر من مشرط يمزق جسدي. حاولت أن أعطي نفسي ثقة أكبر.. أن أواجه قدري ـ كما قال أبي ـ لا شيء يحدث. موقف جامد يظلله جو جنائزي كئيب. مؤكد أن أبي لم يعش حالة استنزاف

كهذه. يجب أن أصل إلى نتيجة ما. لا أستطيع أن أبقى في هذه الظلال القاتمة.

في لحظة الهذيان.. تهادت إلى ذهني أفكار من نوع غريب أفرزها الموقف الحائر الذي أعيشه. ترى أي حديث يدور بين العروسين؟ تساؤل ينم عن فضول زائد، ومع ذلك وجدت إجابة ترضي فضولي:

- أسعيدة أنت؟
- . . . !!
- هذه الليلة حلوة.
- بل مملة.
- لماذا يا بدرية؟
- لأنك إلى جانبي.

وجهة نظر أرضت بعض غروري. ترى هل توافقني بدرية؟ وما الفائدة؟ الموافقة لا تجمعنا. كلٌّ مضى في طريقه، بل بدرية هي التي مضت. أنا مازلت أبحث عن طريق. كل الطرقات تتمطى في وجهي. لا أمل العبور إلى ما أريد. كنت أحلم، بفتاة متعلمة ترضي طموحي. وعندما وجدتها انسلَّت كالماء من بين أصابعي. يبدو أن الطريق سيظل مسدودًا نحو هذا الاتجاه.. آه، كم حذرتني أمي عندما قالت: «أخشى عليك من الطموح الأعمى».

عدت إلى البيت. الذل يكسو موقفي، أحمل خيبة أبدية. لا أتصور هزيمة جارحة بهذا الشكل. الطموح أحيانًا يؤدي إلى التهلكة. كنت أصرخ: «لا أريد أن أبقى مسحوقًا». وعندما

جاءت الفرصة قبل عامين بالضبط، جئت إلى المدينة. مع الأيام عرفت الحي وأهله. أصبحت واحدًا منهم. ازددت ثقة بنفسي. الطموح ينقصه درجة واحدة. كنت أبحث عن انتماء من نوع خاص، فتاة الحلم. وجدت هذا الانتماء. إنها بدرية.. أحببتها.. فقدتها.. مرت الأحداث كحلم مثير للقلق.

يطول الليل.. أمضي في قافلة السهر. رأسي مسكون بأفكار قلقة. لا أستطيع أن أبقى هنا. هل أرحل إلى مدينة أخرى؟ هل أعود إلى...؟ أجل فكرة جيدة.. العودة إلى قريتي، لابد أن لي فيها منزلة خاصة. هناك من ينتظر عودتي. أمي، وابنة عمي منذ سنتين لا أعلم عنهما أي شيء. تبًا لهذه الجفوة.. «آه.. يا أمي.. يا صدر الدفء والحنان».. كم كانت تكثر من التوسلات. يسعدها كثيرًا أن أتزوج لطيفة، هي يتيمة.. مؤدبة.. ربما أستطيع أن أجعلها تقرأ وتكتب على الأقل. المهم أن أعيد البسمة إلى قلب أمي.. نعم سأتزوج لطيفة.. الآن فقط ارتاحت نفسي من عناء التفكير. إيقاع من الحماسة سرى في كياني.. نشوة الانتصار.. حملتني إلى إغفاءة جميلة. في صباح اليوم التالي كنت في الطريق إلى قريتي. عندما وصلت دخلت البيت وجدت الأم وحدها. نسيت نفسي، ودفنت رأسي في حجرها. مرت ساعة أو أكثر لم أر لطيفة.. سألت عنها بلهفة زائدة..

- أين هي؟

- من؟

- لطيفة!!

- ألا تعلم؟
- ماذا . . ؟
- لقد تزوجت قبل شهر تقريبًا .

الركض في دائرة المجهول

حصلت على الجائزة في مسابقة نادي أبها الأدبي لعام 1403هـ/1983م

الإهداء: إلى من عاش تلك السنوات.

تحجرت الأشياء في عين الزمن. دروب الرحيل غدت ثعبانًا يرقص، يتلوى. أعجفت الأيام.. ثلاثية الحزن، كانت القاسم المشترك في حياة الكثير، خواء يسكن الأمعاء، خوف يضطهد أمن الحياة. غربة تفتح باب التشرد.. هذا الوجع، حملته الأحداق. ناحت به الحناجر. في غرفة تضيق بصراخ الوليد تكومت الأم على أطفالها. أعطتهم حنانها. بقي شيء آخر لا تملكه الأم. صرخ أحد الصبية: «أمي.. أنا جائع». اهتزت.. تدفقت الحيرة في أعماقها.. الكلمات تجمّدت فوق شفتيها.. ماذا يمكن أن تفعل؟ حظها.. قدرها أن تحمل عبء الحياة وحدها. في يومها هذا عاشت حزنًا متلبد الإحساس. بكت. صرخت. لم تجد من يبكي مصابها. أحداق الصبية دمعة أبدية. مأساتها تزداد خصوبة. في هذا البعد المقفر. فقدت دليلها، حامل الراية المهترئة. عندما كانت الشمس تغوص في عمق المساء. جاء الصبية يصرخون، كان الأب محمولًا فوق أعناق الرجال: «ماذا حدث؟» رُبان ماهر قهره بحر الحرمان.

هكذا تشكلت أمواج الأيام المتكسرة. أصبحت دائرة من ضياع.. ضاعت فيها خُطى إنسان هائم.

❀ ❀ ❀

«الشمس آخذة في الزوال. الطرقات آخذة في الامتلاء. وعامل الاتحاد بين البرد والجوع يفرض هذه اللحظة بكآبتها. والناس في قريتي توافدوا، تضخمت أحلامهم. نما في وجدانهم شعور بالأمان. حول الجرين وقفت في قلب الحشد. الأعين مصوبة باتجاه كومة الحبوب. رغيف الخبز غدا طوق نجاة. أسطورة تسامت مع الأيام. شعرت بالاختناق. مددت قامتي معتمدًا على أطراف القدمين.. «حتى نسمة الهواء بدت شحيحة». أجلت نظري. لمحت أطفالي الثلاثة، في جلسة ملتصقة، بحثًا عن الدفء. في أعينهم قلق بدائي. أضناهم الجوع والبرد.. «آه من هذا الزمن. زمن الغربة والتشرد. زمن الغربة الأبدية». أحس بمرارة الكلمات تنزلق من لساني. في داخلي عالم آخر ينضح بالحسرة والألم. هؤلاء الأطفال من المسؤول عن اغتيال براءتهم؟ أنا أم الزمن الرديء؟! بالتأكيد لم أكن في يوم من الأيام متخاذلًا. مشيت في كل الطرقات.. حافي القدمين أحمل في قلبي مرارة الصبر. أبحث عن لقيمات تستكين في الأحشاء الصغيرة. نداء الأفواه يؤلمني، يقلقني.. يزيد من حيرتي. وها أنا اليوم أقف والذل يكسو موقفي أنتظر رحمة الإله، ثم كرم الأغنياء.. أنتظر حفنات قليلة، وربما أقل من ذلك. أريد شيئًا للبطون الخاوية فقط.

الآن، لم أعد في وضع يؤهلني للهدوء. بدأت الأجساد

بالتزاحم. لحظتئذ شعرتُ بأنني تائه وسط أمواج متكسرة.. «يا إلهي.. ماذا أرى؟» لا أصدق. هل أنا أجتر بقايا حلم مخيف؟! قسوة سحقت أحلام الفقراء. حينذاك، تصايح الشيوخ، تناثرت دموع الأطفال والنساء.. والأغنياء يمارسون قسوتهم. كنت أراهم يحملون الأكياس متخمة بالحبوب. يضعونها داخل بيت حصين دون اعتبار لمأساة هؤلاء.

هذا المساء أي حكاية تنسي أطفالي شراسة الجوع؟ بأي منطق يمكن أن أقدم دليل براءتي؟ الإخفاق شيء مؤلم. مضيت إليهم أتجشأ مرارة الخيبة. قبلت أعينهم الدامعة. لم أحتمل كآبة الموقف. أنا من أنا؟!! إنسان أحواله حُبلى بأوجاع السنين. إنسان قسا الزمان عليه. أورثني فقرًا أزليًا. أدخلني متاهة بلا حدود. من أي البلاد أتيت؟ إلى أي الأماكن انتهيت. سفر طويل فيه الجوع والظمأ. فيه الألم والتمزق. ها هي الأزهار من حولي تراقص الشقاء.. تُغازل الذبول. أنا مأسور بكل هموم الدنيا، مسحوق حتى العظم.. إلهي ارحم ضعفي وضعفهم».

❀ ❀ ❀

حمل الأب نفسه بعيدًا عنهم، وجلس القرفصاء.. الخيبة تسكن ذاته، جذوة القهر، قمة في التوهج.. «من لم يمت بالسيف مات بغيره».

بعين دامعة كانت نظرات الأم تلامس الجسد المسجّى. تندب حظها العاثر. تضم صبيتها في خوف وقلق يأخذ في التصاعد مع أنّات الليل الحائرة.. «أيها الليل

بطولك السرمدي.. بوحشتك الأزلية.. بظلامك المستبد.. متى تنقضي؟»

الجو جنائزي كئيب يثير الرعب، جسد يمثل الموت، يتمطى في أرجاء المكان.. «أيها النوم عندما تأتي ستكون رحمة لي ولصغاري».

لحظة مفارقة فيها انفصام بين الماضي والحاضر. ماضي الإرث الحزين، وحاضر اللوعة والعناء. الدائرة تأخذ في الاتساع. الأم تحدق إلى ملامح الوجه المتجعّد.. «ماذا هناك؟» وشم الاغتراب يرسم خطوط التشرد القسري. محطات كثيرة مرت بأذهان الصبية. مد البحث عن جوهرة البقاء. يكتب ـ كل يوم ـ سطرًا لولبيًا بحروف متنافرة ومعانٍ متفرقة.. «آه.. من هذه الدوامة، حطمتني، أجبرتني على الفرار إلى أغوار نفسي.. وأنتم يا أطفالي.. عندما يتغير وجه الزمن.. أستطيع أن أعطيكم ما تريدون».

تحرك أحد الصغار.. آلمته لسعة البرد. احتضنت الأم ابنها. قبلته. أعطته ما تجد.. الليل بكابوسه، بوحشته بدأ ينطوي تحت أعطاف الفجر. بصيص النور كان نقطة انفراج.. «يا صبح العالم.. أطلقني من هذا الأسر».

خرجت الأم تتلمس طوق نجاة. حيرتها تكبر. الموت مازال يعاشرها. بحثت عن المساعدة. وجدتها في فترة متأخرة من النهار. كان جثمان الأب يرقد في عالم آخر. تنهدت الأم. انحصرت دائرة الماضي. بقيت مجرد ذكرى لأيام مؤلمة. دائرة أخرى انداحت، اتسعت. من هنا تبدأ خطوة أخرى. حملت الأم معاناتها من جديد. بعفوية وبراءة سأل أحد الصغار:

- أمي.. إلى أين؟
- نبحث عن مكان آخر.
- ونترك أبي هنا؟!
- ربما نعود إليه في يوم ما.

مخاض الساعات الأخيرة

في الأفق كانت ارتعاشة ضوء. تجاوبت له أصداء روحانية. بذرت في نفسي فيضًا من مشاعر الانتصار.. «يا نفسي الشهيدة، المزروعة في قلب العدم. كل الأوسمة بانتظار لحظة تفوق».

كل الأشياء مرهونة «بلحظة تفوق». اختيار قسري يدفعني إليه هيكل الفقر الممتد في أحشاء حياتي. الصبح الموعود ألقى بضيائه في كل الأعين. من فوق الفراش المهترئ نزعت جسدي المتعب. حملت إبريق الماء النحاسي. توضأت. أديت الفريضة. كان الدعاء يسبق كل توقع. فحالات الانهزام العميقة، التي خلقت في الأنفس جراحًا نتنة، لم تغب عن ذاكرة المسحوقين. أغلب المواسم نما في أحشائها قوت الحياة، ثم أجهضت عند لحظة الحصاد. في الموسم الذي توضأ بخيبة الأعين النهمة هطل المطر. تجذر في أعماق الأرض. استلقى بكبرياء وعظمة. احتضنت سفينته كل ثمار الموسم لترحل إلى عدم محتم.

لم تكن النهايات في هذا العالم الضيق محدودة. فالموسم الذي سبق «موسم الطوفان» ـ هكذا عُرف في عالم القرية ـ ولدت فيه حشرة غريبة كانت سرطانًا ينهش فرحتنا. اغتالت

الزرع في عنفوان نموه.. «رباه.. لا أستطيع اجترار جراحات أكثر». في رحلة المصير حملنا أمتعة الحصاد، وانطلقنا نسوق ماشيتنا، يحدونا الأمل المخنوق في بؤرة اليأس. الطريق يتمطى بجبروت أحمق. يرفض أن يحمل أقدامنا المتشققة. ينثر أشواكه بتسلط. في الطريق كانت أفواج الناس تمضي إلى الغاية نفسها. غرسوا صبرهم، وأملهم في أحداق هذا الموسم.

اللحظة.. وصلت قافلة الأجساد المتهالكة. هذا اليوم تتويج للأحلام الجائعة. في الركن الأيمن من المزرعة كانت وقفة الاستعداد. أعطيت نظري فرصة للتأمل. بنشوة طفل في السابعة كانت سنابل الذرة المزدحمة تتمايل. هذه الأرض الممتدة بشكل خرافي. تعاملت معها بحنان زائد. حرثتها غير مرة. أصلحت مواردها المائية. أطعمتها سمادًا حيوانيًا وافرًا، ومع ذلك، فليس يعنيني منها إلا محصولها، بل نصفه.. ولصاحبها النصف الآخر. هذه الأرض حلم مخنوق، إما أن تمنحني طوق نجاة، وإما قيد عناء.

حينئذٍ بدأت الشمس ترسم أول بصماتها الضوئية. كانت بداية الحصاد. مساحات للركض انداحت. بعمق الرغبة الكامنة في الصدور تحركت الأيدي بشكل آلي. أسقطت هامات السنابل.

كانت البداية موفقة. مقدار لا بأس به. قاعدة عريضة للطموحات.. للرغبات تبلورت. أعطت ضوءًا أخضر رغم غزو الطيور المركز الذي استهدف السنابل الناضجة. فالموسم ينضح بالخير، ومع ذلك نصبنا أكثر من كمين لقهر السطوة البليدة..

الرغبة الحقيرة. وغالبًا ما تنتهي الأحداث الدرامية بسقوط عدد من الطيور تحمل جراحات الاصرار على البقاء.

في اللحظة الراهنة ولادة آنية. دائرة من الظلال غمرت جزءًا من محيطنا. خِلْتُ ذلك سحابة نزقة ترقص فوق جدائل الشمس المتوهجة. اتسعت الدائرة. أعطت انطباعًا بالدهشة. علت الأصوات في تباين غريب تسكنها رهبة محومة. الأفق غيمة قاتمة.. متحركة.. تدنو بشراهة.. تقذف سمًا، وجعًا هستيريًا، تنهش جلد الرغبة في أعماقنا. داست أسراب الجراد جثمان خيبتنا. بدأت بالزحف الهمجي. غدا أديم الأرض مسلوخًا من رونقه.. خضرته. كل الأشياء اكتست بلون الجراد. اللون الجنائزي الكئيب. تحدٍّ ممقوت. وحشية الغزو اللئيم تلتهم محصول موسم كامل. فظاعة الموقف تفقد الإنسان تفكيره.. شعوره بالحياة. همجية الزحف تسقط كل وسائلنا الدفاعية. صخب الإنسان العاجز يتسلق جدران البقاء. من يملك ضوء حياة؟! عصابة القرون الحجرية تمتص دماء العجز من آخر هيكل.

في آخر النهار كنا نشيع جثمان هذا الموسم. نتجشأ مرارة الهزيمة. نمشي فوق أرض جرداء. مساحة بعرض الفاجعة تنداح تحت أقدامنا. نتجرع عذابات النهاية. نبحث عن مبرر للبقاء. أعيننا تحدق إلى فراغ غابات من الحزن. أحسستها تخترق دماغي. الصوت الهادر في داخلي يمزق جذور الانتماء.. الناس.. الماشية.. كل الأشياء غدت سرابًا يتلوى. يغمرها لون الحداد. يسرح في كيانها أفيون همجي، أسوار التهابات تتعملق. تصغر أبعادها. يدنو في محيطها مخاض الساعات

الأخيرة الدوامة تتسع بعرض المحيط. تساؤلات تنصهر في ذاكرتي. تبحث عن خلاص.. «آه.. يا وجع الأزمنة المسلوخة من كل حياة». كل الدروب تتفيأ بأشواك خنجرية. غثيان الانسحاق ينثال في كل الصدور. وهذا العالم ـ المصاب بحالة إجهاض سرمدية، المسكون بجرثومة الفقر.. ومرارة الصبر الشهيد ـ يمارس عشوائية الغوص في هذا الوباء.

زمن العشق الصاخب

شعور غريب يغمرني بالخذلان. يثير الحنق في صدري. ما أكثر توافه الأشياء!! تتقافز في وجهي، تستفزني. حتى إشارة المرور تفتح عينها الحمراء في عيني.. عجبي.. أي مهزلة تلك؟ ما أنكد حظي!! تظل الإشارة باسمة للآخرين. وفي وجهي النحيل تقطب. لو لم أكن في عجلة من أمري، ولكن لا يهم. بعض الوقت وأكون وسط أكوام البشر. قليلًا من الصبر فقط.. «يا صبري العتيق.. أستجديك هذا المساء. أنت الوحيد الذي يلملم أشلاء هزيمتي». «أيها الفارس.. ترى هل يأتي الفرج؟! صدقني.. سأرقص، بل سأصرخ، وأغني للفوز الذي أرجوه». مؤكد الإيمان بالقدرة موجود. لو نسحق المارد فقط. لو نخطف الضوء. أعلم أن كلمة «لو» تُثير القيء. زوجتي دائمًا تضجر عندما أستخدمها، ولكن ماذا أعمل؟ الرجاء لا يأتي إلا بهذه الكلمة اللعينة.

انطلقت الأبواق الحادة من خلفي. ارتعشت يدي فوق مقود السيارة. رغم تباطئي الحذر. تقافزت السيارات من جانبي. ماذا بوسعي أن أعمل وسط هذا الهوس؟! بعد أن أنهيت قاموس الشتائم بكامله، أوقفت سيارتي. الجلسة أمام التلفزيون لا تعوض.. كانت تلك نصيحة زوجتي.. لأفترض أنني قبلت..

ستثيرني بتعليقاتها السخيفة.. لا..لا.. مكاني الطبيعي وسط المدرجات.. هنا تكون المؤازرة. إما النصر وإما...!! وإما ماذا؟ يالليخيبة.. لا أستطيع أن أتصور هزيمة أخرى.

بدأ الرقص الكروي. إثارة، وعنف، وتحدٍّ. قلق يسكن الأحداق. التوتر يتجذر في الأجساد. همهمات تنزلق من أطراف الألسن. وقفت في قلب الحشد، حاضر الذهن والبديهة.. «تبًا لذلك الراقص. إنه لا يجيد رقصة المحارب. تنقصه المهارة، والسرعة في الأداء». كلام سئمت ترديده. أذكر أن صديقي قال ساخرًا.. «أصبحت أرشيفًا لكل الصحف». آه.. لو يدري مدى عشقي لتلك الجمجمة البيضاء. إنها تسكنني من الداخل. بسحر مباح، بأنس عنيف. وماذا بعد؟!

انقضى نصف الوقت. لا نتيجة تذكر. غارات فردية تسقط في كمين الخصم. المواقع في كلا الطرفين محصنة رغم تقافز الجمجمة بسرعة مذهلة. الكل بقي متخوفًا. إيقاع تتجدد إثارته. من يحسن إتمام الرقصة. زادت درجة الترقب. هناك شيء ما يحدث. انقلبت الموازين فجأة. عصفت أنة الحسرة في قلبي. أحسست بحجم الإهانة يكبر في نفسي. سمعت أحدهم يقول.. «لن يفوز أبدًا». تمنّيت لحظتئذ لو أصفعه. لو أمزق وجهه بأظفاري.. «آه.. من سقطتك أيها الفارس. هي التي أتاحت لهؤلاء الجبناء، التندر بهزيمتك. أنا أعلم أن وقت انتصارك لم يحن، ولكن ألست معي أنه طال؟!»

المدرجات من حولي فراغ. الجو جنائزي كئيب. انسحبت في صمت كصمت المقابر. في الشارع كانت زحمة

السير قد تناقصت. ركبت سيارتي، وانطلقت. وجهتي لم تكن معلومة. كانت في نفسي شرارة ألم تتقد. خليط من المشاعر المحزنة تجثم على صدري. أسبلت عينيَّ. كانت سخونة الدمع تحرق أجفاني. يئست من جدوى التسكع. عدت إلى المنزل. عند الباب استقبلتني زوجتي. تحاشيت النظر إلى وجهها. بشراسة وصلت قهقهتها إلى أذنيَّ. صوبت إليها نظرة حادة. لم ترعو، بل استثارت هدوئي المصطنع، حين قالت ساخرة:

- مبارك عليك!!
- على ماذا؟!!
- على الهزيمة طبعًا.

لم أحتمل إهانة أشد. صفعتها. أجهضت احتمال سخريتها. ربما يكون هذا انتصارًا. لم لا.. أليس ما فعلتُ خروجًا من المأزق؟ لكن ما يؤرّقني، أنه على حساب زوجتي.. هي لم تفعل شيئًا.

دلفت إلى غرفتي. بحنق ألقيت جسدي على السرير. حاولت الهروب. واقع اللحظة مازال يطاردني.. «أيها النوم بسلطانك اللذيذ.. هل تسكن الأحداق». بعد جهد مرير كنت أطفو فوق سطح النعاس، ثم تراخيت حتى غبت.

❀ ❀ ❀

في الصباح كنت أدفع الثمن. زوجتي بحمقها الغريزي. تدين زوجها:

- أوصلني.
- إلى أين؟!!
- إلى أهلي.
- لماذا؟!!
- لا تسألني، اسأل نفسك.

لكن نفسي لا تجيب. ينتابها الدوار في عرض المحيط. يقتادها الجلاد نحو الهاوية. الهجر والفراق.. من أين لي بصبري الذبيح؟ حتى أنت يا عزيزتي، لا تصبرين. أنت التي تعرفين الداء. العشق أدخلني في دائرة العدم.

أوصلتها.. رغبتها في الذهاب كانت أقوى.. في طريق عودتي فكرت. أين أمضي؟ ضياع غمرني. لا أستطيع أن أذهب إلى عملي. هناك من يشمت بي بكل تأكيد، المدير مازال يعيش نشوة النصر. وأنا في المقابل، أعيش أصداء الهزيمة. ضدان لا يجتمعان. في المرة السابقة جاء إلى مكتبي. مزقني من الداخل بتهكمه. وأنا بضعفي بقيت لوحًا لا ينطق. دائمًا يجد لذة في الضحك على حسابي. آه، لو أجد القدرة، وأعيد الكأس في جوفه. قال لي أحد الزملاء: «ساير رغبته.. صفق له كما يجب.. افرح لفرحه، واحزن لحزنه».

هذه الازدواجية لا تعجبني. لا أستطيع أن أمشي في خطين متوازيين. يكفي الاحتراق في نار إهانته. سأغيظه اليوم. ولكن بماذا؟ انقدحت في ذهني فكرة بديعة. لن أذهب إلى العمل وكفى. ارتاحت نفسي لهذا القرار. اعتبرته انتصارًا

لكرامتي. مؤكد سيطلبني ولن يجدني. لحظتئذ ينسحق في غيظه.. آه، لو أرى تآكل النار في صدره.

❀ ❀ ❀

في هذا اليوم كنت قد تخلصت من بعض الكآبة التي تغمرني. بالأمس عشت حالة من الجمود. لم أفعل شيئًا ذا بال. بقيت أجري على سطح الخيبة دون جدوى. تشكلت في داخلي دوائر حُبلى بكل الأوجاع والهموم. في هذا الصباح استيقظت وفي فكري سؤال يتمطى. يفرض نفسه بإلحاح. استجبت لصداه. أين يمضي بي الطريق؟! حملت السؤال بقلقه، ومضيت إلى عملي. في مكتب المدير وقفت أنظر بكل بلادة. فقدت شجاعتي. وجهه الجامد كان يرعبني، لكنني بقيت أنصت إلى توبيخه:

- لابد أن أضع حدًا لتلاعبك.
- أي تلاعب؟!!
- تغيبك عن العمل.
- كنت مريضًا.
- بل مهزومًا يغرق في بحر الخيبة.

من يده حملت قرار إدانتي. خصم عشرة أيام من المرتب الزهيد. بعدئذ خرجت أهيم على وجهي. السؤال مازال يطاردني. يحاصرني في زاوية ضيقة. أين يمضي بي العشق الملعون؟ الهوس الممقوت. بالأمس فقدت زوجتي. اليوم

أخسر جزءًا من عملي. حاولت الهرب من إلحاح السؤال. قصدت دكانًا لبيع الجرائد. تصفحت إحداها. بحلقت في صفحات الملحمة الكروية. قرأتها بنهم. أثارني بعض الحديث فيها، بل فجر الغضب في ذاتي. أحدهم يهذي بوقاحة.. «الجمهور كان سلبيًا مع الفريق».. «برودة الجمهور سحقت الحماسة في الملعب».. «عندما جمد الجمهور استقرت الكرة في شباكنا».

توقفت عن القراءة. نظرت إلى الموقف من عدة زوايا. السؤال عاد بشكل جاد، إلى أين يمضي بي طريق العبث؟!! هذه الملحمة لا تناسبني. على قدر ما أعطيت وجدت الاتهام يصفعني. لا لن أدير خدي لهذا الهوان. وفي الحال ولد في ذهني تساؤل طموح.. ترى من أين تبدأ نقطة الانطلاق الجديدة؟

حمى الأزمنة المجدبة

في أرض قاحلة، جرداء. تحبو فوقها أشواك الزمن. نبت مثل شجرة صبَّار شائكة. كان خبرًا استعذبت الألسن نقل حكايته. وكثيرًا ما أصغى الصغار والنساء إلى أجزاء من سيرته، لكن أحدًا لم يعرف حقيقته. عندما سئل:

- من أي الأماكن قدمت؟

أجاب:

- من أرض لم تعرف طعم الحياة.. ولم يضف شيئًا.

هذه الإجابة خيبت أمل الناس في هذه القرية.. القرية التي ما ملَّت استقبال الغرباء، حتى أصبحت حكاياتهم، وأخبارهم مصدر حياة لكثير من ناس هذه القرية.. خصوصًا في أيام القحط عندما يتحلقون بعضهم حول بعض. يهربون من واقع اللحظة الأليم. وعشاق القصص والرواية يتلون أجزاء من سيرة غرباء القرية.

يومذاك.. أثار هذا الغموض موجة من السخط.. الغضب.. الفوضى.. وأشياء أخرى، تنم عن عدم الرضا.

أطلق بعضهم عليه عبارة.. «غريب الغرباء». وبالجزء الأول من هذه العبارة عُرف.

وقرية كهذه ـ أو «الملجأ» ـ كما يحلو للبعض تسميتها كانت تستقبل الكثير من غرباء الزمن في مواسم الخير، لكن هذا الغريب بغموضه، وبعده عن الثرثرة ـ وهذا ما أثار أهل القرية ـ قدم في موسم من مواسم القحط. شذوذ لم يألفه أحد. والغرابة بهذا المعيار تتسع، تتبلور لتصبح حدثًا كبيرًا، قضية يختلف الناس في تحديد أبعادها.

يومان.. ثلاثة.. أربعة.. تجذرت رغبة القادم في المكوث. انزوى كالبوم. يمتطي أفق التأمل. كان صموتًا غامضًا.. في ليله يمضغ سيف السأم.. وأحداق الكرى.

وفي ضياء الكون يتصاعد كالبخار. يرتدي زي المقاتل. في فضاء الله يبحث عن نعاس للبطون الخاوية.

لم تعد الناس دهشة، أو بقايا من كآبة، بل غدا في جوهم حزنًا عاريًا كالصخر. يرتخي.. يمتد في كل الصدور.

أيقن الناس أن القادم ليس صوفيًا فترجى صحبته، أو من صعاليك الحياة البائسة، بل ذاك شيء طارئ حل في دنيا الرتابة. كل ما فيها خرابة.. تغزل الأشباح.. وتقتات الحكايات العقيمة.

❀ ❀ ❀

«عجبي.. قرية كل ما فيها مصاب بالسعال، فهي تحسو ظلها. كل يوم تجتر كؤوسًا من جراحات مذابة. ذكريات الأمس أصداء مصابة. تتلوى كالأفاعي. في زمان القحط هذا الذي يسطو كالعصابة تاهت الأحداق في بؤرة أوحال قذرة. نحن في

زمن يبكي ويستبكي الخطابة. ورواة الليل، وعشاق النغم يبحثون عن حلق ربابة يسكب النوم في أحداق السهارى.

إن قلت «عجبي» فالظلال هنا قاتمة. يكاد الظل يسقط على ظل آخر. يتلاشى في هذه القرية شيء اسمه فداء، أو تضحية، لم يعد للمألوف لون حياة. لم يعد للناس إصرار وعزيمة. وغدوا يشرون خيالًا وصورًا.. في زمان المحل هذا.. يفقد الإنسان صوته.. وعينيه. في زمان الجدب هذا تبلغ الأحلام أكداسًا كبيرة.. تتردى تحت الضياء.

هؤلاء البسطاء يلبسون الحزن. يبحثون عن طوق نجاة، عن جرعة ماء.. عن كساء يخفي سطوة الجدري.

هذه القرية بكيانها الموغل في الغرابة استثارت فضولي. أعطتني ضوء أمل في المشاركة. بقدر لا أعلم حدود أبعاده، وضمن هذه الحدود بدأت أنظر إلى خريطة القرية. وجدتها مليئة بالرقع والنتوءات الحادة. ممزقة كأن أيديًا طفولية تعمّدت العبث بها.

من سيرة هذه القرية المفعمة بالإثارة والحزن الرمادي استقطبت أذناي خبرًا لم يكن مدهشًا، بل متمردًا تكمن فيه أوجاع الصبابة،. تختبئ فيه أنقاض الخرابة. كان للذعر في العيون مهابة. خفت سطوة أيدٍ همجية لم تروضها كل أقدار الزمن. تحملت سخونة السخرية، وبدائية الأفكار.

سألت عن قصة ما أرى، قيل لي.. «بئر مهجورة».. أي بئر تلك؟! قحط الأيام يزداد ضراوة. حياة الناس عطشى. كل الأشياء تئن.. تتبدل. وواقع الإنسان ـ هنا ـ ركود. وكل ذلك

يعلل بالصبر.. «يا صبر المواسم المجدبة امنح عشاقك صوت حياة». وجاء الصوت من أعماق البعد يحمل بقايا سأم، تتخلله زفرة وترٍ باكٍ. لم يكن قويًا بقدر ما كان مذعورًا.. وجلًا، يحمل ألف مهابة للقادم المجهول.

كان الصوت يتقيأ غرابات موجعة. بئر تمثل تاريخًا مسجى، يسكنها غضب المساءات، يتلوى في ثناياها انفعال البدايات. طوفان أحمق مدمر ينضح من أعماق مجهولة التكوين. هذا العالم مسكون بألف استفهام. تتبلور في خطوط وهمية. تنداح. يحضنها المجهول. إبحار ضد الوعي. أي الأشياء تسكنني؟! الغوص في محيط التجربة، أفق متوثب يطفو في مخيلتي.. «يا ناس القرية.. البئر بداية خطوة.. كل الموجودات ضدكم.. فقط.. تكون معكم.. لكم.. عندما يكون التعامل معها.. بحكمة.. بمثالية واعية.. هذه البئر.. مصدر حياة.. أعرق الموروثات في عالمكم، بأي حق تهجرونها؟!»

تباينت الأصداء. خليط من الرفض والإيجاب. وسط هذا الهياج، والسعار المتزايد. كانت حمّى الأشياء العفنة تقذف مساحة الضوء بغمام فاحم. ورغم ذلك ومع حالات التقزم الشرسة كانت للشمس إطلالة. معظم الجراح الغائرة امتلأت بأنسجة الضوء. غدت البداية بهذا المنطق ممكنة. كان علينا أن نروي عطش الأرض والإنسان الهامد في عمق الكارثة من نبع البئر الخالدة. تعاملنا مع البئر بأسلوب حضاري. حملنا فوق الأكتاف وزر السنين المجدبة. نرجسية الأطيان الموحلة، غوغائية الطحالب المائية، عفونة الطقس المتأزم، جميعها لم تعد فرس الرهان في هذا العالم. كل الأشياء

المزروعة في قلب السأم، الإنسان.. الأرض.. الموجودات اغتسلت، تجلت نقاوتها.

كان ذلك بداية هجرة في أوردة الانتصار. في هذا المحيط كل الأزمنة المجدبة صارت ثمرة أقحوان».

❀ ❀ ❀

انهار هيكل الغضب. سرمدية الليل الأخرس غرقتُ في بقعة ضوء. من زمن كانت القرية تخشى أن تكشف عن زينتها. أن تبدي فتنتها على مسرح الضياء. أبرزت للعالم بطاقة ميلاد جديدة. اندثر وهم الأسطورة. الوهم الزمني الفاسق. مقصلة المخاوف انسحقت، تبدلت بأرجوحة أفراح تسكنها النسوة، تطير بين أفقين مضيئين.

هذا الغريب لم يعد غريبًا. تناقل الناس عهده. أصبح حكاية انتصار. ترويها الجدة للأبناء.

❀ ❀ ❀

في يوم كئيب خرجت القرية تبكي مصابها، تنعى فقيدها. الغريب قتل!! من قتل الغريب؟!!.

كان حلمًا لا يصدق. بئر الحياة الجديدة جحظت عيناها. أبحر فيهما حزن أسطوري. غلت في أعماقها حمّى غجرية. أبدلت الماء دمًا قاني الحمرة، وعادت القرية تقتات الحكايات العقيمة في موسم قحط جديد!!

البوح بأسرار الكآبة

هناك أسطورة شعبية في منطقتنا الجنوبية تقول:

«إن رجلًا عاش معظم حياته والفقر يلازمه. كان أن سمع في منامه ذات ليلة، صوتًا يناجيه قائلًا: «رزقك بباب صنعاء». وعاوده هذا الصوت ثلاث ليالٍ، في الليلة الثالثة استأذن أهله، ورحل إلى باب صنعاء ـ كما تقول الأسطورة ـ وهناك مكث بالباب مدة تزيد على الشهر، ولكن شيئًا لم يحدث، حتى كان مساء يوم من الأيام، فقص عليه ما كان من أمره، فتعجب الرجل، وضحك، ثم قال:

- يا أخي.. عد إلى أهلك، ولا تصدق كل ما تسمع، لو تدري ما حدث لي، لقد سمعت في منامي صوتًا يناجي قائلًا:
- يا فلان، رزقك في «سودة أهل الثوابي»[1]، عند جذع «التالقة»[2]. ولكنني عددت ذلك من أضغاث الأحلام.

«وتتابع الأسطورة سرد حكايتها، فتقول: إن القرية هي قرية الرجل المسافر إلى صنعاء، ففهم المغزى، وعاد إلى قريته،

(1) قرية من قرى منطقة عسير، تقع إلى الغرب من مدينة أبها.
(2) شجرة كبيرة، تعد مَعْلمًا من معالم القرية.

وبحث عن رزقه، فوجد كنزًا من الذهب والفضة، رفعه إلى منزلة السلاطين الكبار».

❀ ❀ ❀

البداية

ليل صموت.. خرافي البرودة يجثم على الأشياء بقسوة. وقريتي يندس في أحشائها الوجع، يجتاحها حزن المساءات المخمورة. من يعلم مكمن الوجع؟ أنا أعاني، كل الناس من حولي مصابة. يتزحلق في الأفئدة سعال شوكي. الأزمنة مثل بعضها تجود بحكاية انتحار. تلوكها الأفواه تقتاتها البطون الخاوية بانتظار خلاص. روح الأحلام الموءودة تسكن الإنسان والكائنات. درب قدري المسلك يتمطى بالطول والعرض. الأجساد تهاجر مرغمة. يحرقها الهجير. مظلة الأحلام تنمو، تتضخم مثل بالون محشو بالأمنيات. اللحظات عديمة المذاق. في حضرة أولادي أنفخ في مزمار الرعاة. أستعجل سلطان النوم بأن يلقي ظلاله في الأعين النهمة. هذه الأعين المنطوية على ألف كآبة تغازل نسيم الحياة دون أن تعاشره. وزوجتي التي ما برحت تستجدي المستحيل من أجل وجبة طعام زهيدة كانت تحرك الجمرات المتوهجة، محاولة اصطناع شيء من الدفء لهذه الأجساد المتكومة على نفسها.

هذا الليل بانديا‌حه في كل الزوايا. هذه الجموع التي تركض من غير نعال. هذه الأفواه التي لا تلتقي الخبز إلا في المنام. هذه.. لا شيء، بل ما أكثر التواشيح الطويلة التي

تجترها الحناجر، ثم تبكي، ثم تغفو، تبحث عن لون الحياة.

المكان من حولي غارق في النعاس. في الركن شمعة تحتضر.. خدر النوم يدب في أجفاني. أعطيت جسدي راحته.. و...

❁ ❁ ❁

(1)

صوت ما من عالم الحلم يرقص على أعتاب سمعي. إيقاع ثلاثي يشعل سرمدية الليالي يَنْبُتُ في جسد الخمول. دمل محتقن الشكل والمحتوى.. «رزقك بباب صنعاء». دعوة شرسة، حياة جديدة، تعطي مجالًا لرجل مسحوق.. «يا عبث الأقدار.. المسافات في هذا العالم أحصنة جامحة.. تركض دونما ملل أو تعب».

❁ ❁ ❁

(2)

من عالمي الذي يقتات بجوع المساءات، ويشتهي البوح بأسرار الكآبة، وينتهي إلى غرابات موجعة. أعلنت هجرتي، إبحارًا ضد قناعات مرة. العوالم تحفة نادرة. عليَّ ارتيادها، الوقوف ببابها. في أوردة الوجع تزحلقتُ فوق أشواك المرارة. حملت راية الطموح. من هنا تبدأ المحاولة، اكتشاف موطن حياة.

سفر الأقدام اللاهثة يثير إعصارًا غجري الملامح، يستنزف قوى جسدٍ مجدور. الطريق يبصق خطواتي بتقزز. الشمس تستحم بكبرياء فوق جمجمتي. الجوع يحمل سلة خبز فارغة داخل أمعائي. الزمن ينهار في ذاكرتي، يبيض أفكارًا عديمة المذاق.

كانت الأقدام تدمن سيرًا مجهول العواقب. والصدر يحضن مرارات عتيقة. تتوالد كشواهد القبور في زمن الكوارث.

❀ ❀ ❀

(3)

على مشارف المدينة كنت أحبو. أستنشق رائحة المطر. أحدق إلى سلة الفواكه السبئية. في هذا المحيط تبدو الأشياء مترعة بالتفاؤل.

❀ ❀ ❀

(4)

والآن أين بابك يا صنعاء؟ أقبله.. أجثو بين مصراعيه. بالأمس أصغيت إلى صوت الغيث والرحمة. جسر من الرغبات شق صدر الضجر. نجمة شاحبة تلاشت في ضوء الفجر. زمن لولبي الدوران استكان في حنجرة اللهفة. تقيأ خلاصة التوتر والانزعاج. بين ذراعي بابك يا صنعاء وقفت مزروعًا في رحم الحلم. عيناي تركضان في وريد الرغبة هزتني فجأة اللحظة.

الباب يستجيب لرجع زفرتي. يمنحني مركب الدخول. بحذر سلكت دربي. كان عالم المدينة ملتحفًا بالضياء. بواعث الحياة تراقص نظراتي. أنا القادم من أرض الجدب، الداخل في أرض الخصب. أحس بامتلاء الرغبة، بانسحاق الفاقة، بانسلاخ الأفق من ذرات الغبار. وعالمي المهاجر في أخدود العدم يشهق في وجه الإعصار. ألف علامة استفهام تنبت في شفتي.. أين واقعي؟! الشاحب القسمات.. أين هو؟! من دفقة الضياء.. من كبرياء قوس قزح.. هناك في موطن المحل.. العشيرة تجتر صدى الآهات، تغتسل بصديد الكآبة.. وأنا هنا!! «يا خيبتي السوداء. تبًا لجبنك أيها العقوق. إنك تسكنني من الداخل بنرجسية فاجرة ما عرفتْ شكل الفداء».

❀ ❀ ❀

(5)

أنا الآن في وضع يؤهلني لأن أعتلي قمة الهرم. كانت البداية قوية ومثيرة. دهشت لسرعة صعودي. تربعت فوق هامة العظمة. أنا الآن إنسان آخر. يكفي هذا.. دنياي ـ الحاضرة ـ ترف متصاعد. يصبغ عالمي بالقبلات. وسط هذا الانديا‌ح. كنت أعاني فقدان المتعة، التي أصبحت هاجسًا يضاجع ذاكرتي.

❀ ❀ ❀

(6)

في هذا العالم الصاخب.. أحسست بنزف الأشياء القذرة.. انكسارات متوازية، شقت صدر الطموح. وقتذاك كان الإرهاق يجلد قوامي. أشباح هلامية تطاردني، تقذف بكياني من قمة مجهولة التكوين. كنت أهوي.. أصرخ.. أصرخ بملء فمي.. «يا نجدة العشيرة».

❁ ❁ ❁

التقطتُ أنفاسي اللاهثة. سمعت زوجتي تبسمل. حاولت أن أتبين معالم الغرفة، لكن عينيَّ ظلتا عاجزتين عن اختراق حاجز الظلام المستبد.

❁ ❁ ❁

إضاءة

من عالمي الذي يقتات جوع المساءات، ويشتهي البوح بأسرار الكآبة، وينتهي إلى غرابات موجعة أعلنت هجرتي، إبحار ضد قناعات مرة. العوالم تحفة نادرة عليّ ارتيادها.. الوقوف ببابها. في أوردة الوجع تزحلقت فوق أشواك المرارة. حملت راية الطموح. من هنا تبدأ المحاولة.. اكتشاف موطن حياة.

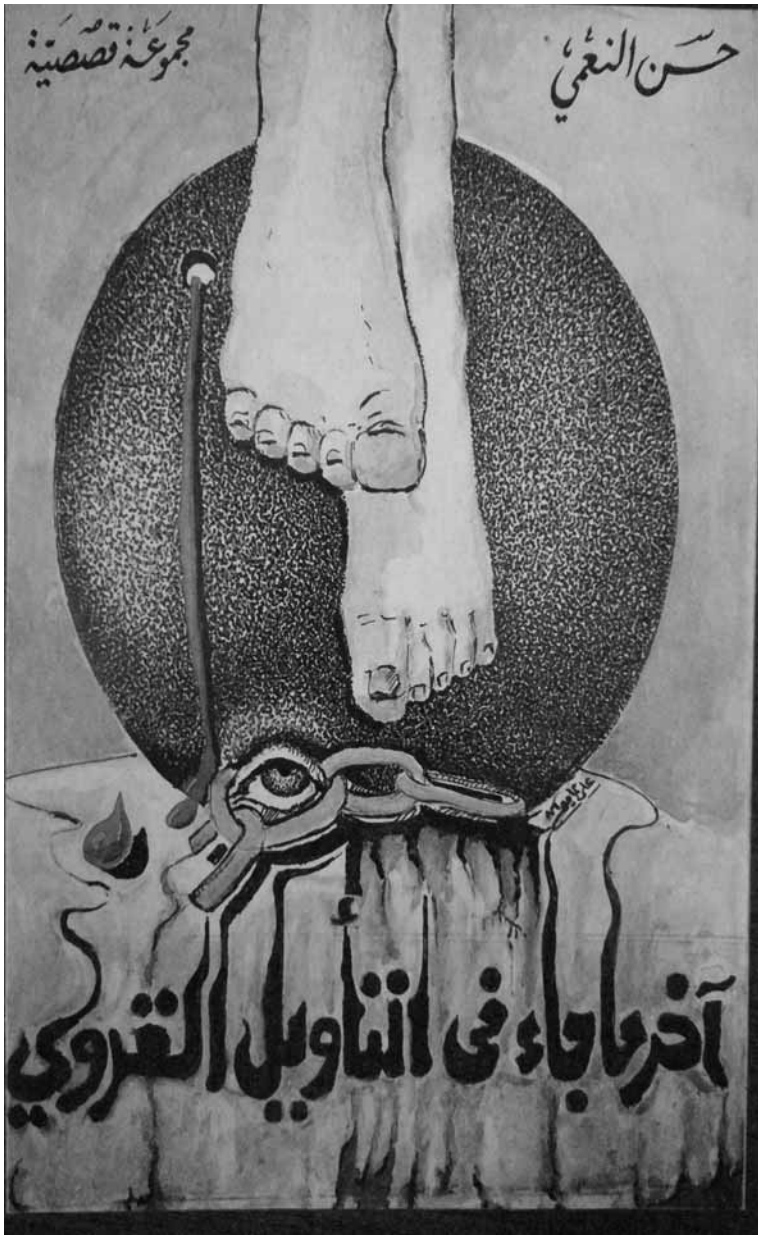
حسن النعمي
مجموعة قصصية
آخر ما جاء في التأويل القروي

المحتويات

آخر ما جاء في التأويل القروي

إهــداء 79
طموحات مانع الأزدي 81
بطولات مانع الأزدي 89
تجليات اللحظة الأخيرة 99
الذئب.. في أعماق الطين! 105
الرأس!! 111
آخر ما جاء في التأويل القروي 115
وللحكاية نبض آخر 121
الرواية الأولى لحادثة الحصن 129
قالوا عن النعمي 139

إهـــداء

إلى نجمة الصبح

وفجر التحوُّلات القادم.

حسن النعمي

طموحات مانع الأزدي

من قريتي التي تحضن النعاس.. مزقت خيبتي.. لست أنا مانع الأزدي إن لم أحمل بندقية عسكرية.. وألبس بدلة زيتية اللون، تشبه لون وجهي القمحي.. نعم هذه القرية التي تلوك سيرتي، وكأني عنترة الزمن الأول.. لا تفرّق بين ركض السلحفاء، وقفز الأرانب.. بل تجيد سخرية حارقة.. تعربد في الآذان.. لكن هذه السخرية بالنسبة إلي.. تشكل في ذهني بوحًا خفيًا.. يدفعني للرحيل.. لامتطاء المستحيل.. للبحث عن زعامتي المفقودة في هذه القرية.. سأقود جيش الطموح.. أنا أو ناس القرية.. نعم البقاء للأفضل.. هم دفنوا الإحباط في صدري.. فرضوا عليَّ التشرد.. أرادوا أن أكون مانع البهلول.. أنا مانع الأزدي على سن ورمح.. قلتها لهم.. أعطوني فرصة لتحسين أوضاعي.. امنحوني ربة البيت التي أريد.. هي لا غيرها.. «رحمة» ذات العيون الصافية من خبثكم.. حتى شيخكم.. الذي علمكم فصول التندر والسخرية.. أثبته بالأمس.. أطلبه تعريفًا بشخصي.. قلت له بصوت مرتفع:

- أنا مانع الأزدي، أريد أن (أكتب في الدفاع).

قال وهو يشرع في ضحكة حقيرة:

- وماذا بقي للعقلاء؟!!

لحظتئذ تواريت في ثيابي.. سئمت الحياة.. لم أجد فيها نصيبي.. لعله في قبري.. لحظتئذ أكون المرحوم مانع الأزدي.. الكل يذكر مناقبي، ويذكر أنني في يوم من أيام حياتي السالفة، خدمته كثيرًا أو قليلًا..

لاحظ الشيخ انكساري.. أراد أن يواسيني على غير عادته:

- نعم أنت مانع الأزدي في الأوراق الرسمية، وسأمنحك تعريفًا بذلك، أما بيننا ـ وابتسم بخبث ـ فمانع الـ..!! خرجت من داره أحمل ورقة التعريف.. كانت فكرة الرحيل في شكلها النهائي.

أطل الصبح الأول في حياتي، الذي أشهده وأنا مسرور.. ودعتها.. هي التي تستحق رعايتي فقط.. من أجلها وحدها أريد أن أكون قويًا، أحمل بندقية الحكومة على كتفي.. أتباهى بأنني حارس الأمن والناس في عالمهم الخاص.. وأنا وأنت، يفصل بيننا التحدي.. نعم أخبريهم بعد رحيلي.. بأنني هذه المرة.. دفنت حرابي في خاصرتهم.. بكل تأكيد سيغرقون في هذيان السخرية.. ولكن لا يزعجك نباحهم.. أنا في المقابل أصعد سلم الشهرة.. في هذه اللحظة.. كانت الأضواء تغمر عالمي.. انطلقت ركائبي.. تبحث عن بداية الطريق.

هناك في مدينة مثلجة خلخالها من الضباب.. وعطرها بوح وأحلام ترابية.. وبردها سيف لشهريار.. عايشت عالمًا جديدًا.. رأيته فضعت يومًا كاملًا.. وجاء ليلها.. يدسني في

حضنها الأثير.. ومن زواياها العميقة.. صنعت الدفء.. نادمت الخمول.. واستكنت في حنجرة النوم اللذيذ.

قدم بحمق العاصفة.. أحسستها تركلني.. جفلت من رقدتي. «من؟.. من؟.. أنا.. مانع».

لم يمهلني وسحبني.. «هيا يا لص».. صرخت في توسل:

- لست لصًا.

لكن لم تكن هناك جدوى.. حينئذ شرعت أجلد ذاكرتي.. هناك بهلول.. وهنا لص.. ماذا عساي أن أفعل؟! ملابسات الأمور دائمًا تلتف حول عنقي.

أمام «القشلة» وقفت حائرًا.. اليوم أدخلها مخفورًا.. كنت أود أن أدخلها مرفوع الرأس.. آه لو يعلم الناس في قريتي.

في الصباح.. قال العريف:

- أنت إنسان غريب.

ولم يضف شيئًا.. انصرف بوجهه عني فترة وجيزة.. ثم قال:

- أعطني تعريفك.

أعطيته.. نظر إليَّ:

- هل تقرأ؟

- أفك الحرف يا سيدي.

ارتفع صوته مناديًا.. يا عسكري.. أقبل أحدهم يتباهى.. وقف أمام المكتب الخشبي المهترئ.. جاء صوت العريف..

- خذ مانع الـ..

خشيت أن يقولها.. أن يقول مانع البهلول.

- ماذا قلت اسمك؟!

- مانع الأزدي يا حضرة العريف.

- خذه إلى معسكر التدريب.

تبعت العسكري في صمت.. أراد أن يمد جسر الحديث بيننا:

- قلت اسمك مانع الأزدي؟

- نعم.

- «عاشت الأسامي».

أعقب ذلك شيء من الفتور.. جاء صوته مصحوبًا بالحياء:

- عيبان.. عيبان القرني.

- هذا اسمك؟!

- نعم.

عاد السكون.. لم تفلح محاولته في الحديث.. لعلي لم أساعده على المضي في الحديث.. ليكن ذلك.. لكن عن أي شيء أسأله؟!. أبدو جاهلًا بهذه المدينة.. لم تبدأ ألفة العشاق

بيننا.. هي لا تعرفني.. أنا لا أعرفها.. كلانا يجهل نقاط الضعف والقوة.. أي قوة؟!.. أي ضعف؟! عن أي شيء أتحدث؟!.. لست بحاجة إلى هذا الهذيان.. كل ما في الأمر أن قراع الصمت مازالت محصنة.. أجل محصنة كدار رحمة.. كم يذكرني الصبح الوليد برحمة.. كل يوم أراها تولد.. ترقص في عيني وحدي.. «آه يا رحمة السماء الكبرى».

جاءت ثرثرة العسكر من الغرفة المقابلة.. تساءل عبيان عن هذه الجلبة، بحثًا عن الحديث الضائع في سراديب الصمت.. التفت إلي:

- هم كذلك دومًا.. حتمًا ستعرف طبعهم هم طيبون مثلك..

«لا أريد أن يقولها ثانية.. هذه الطيبة بلادة في قريتنا.. لا أحب أن ألبس ثوب البهلول هنا».

عاد صوت رفيق الدرب يسأل:

- أكنت تهذي؟
- من قال ذلك؟!
- عيناك.. وجهك.. حالتك النفسية.
- أبدًا.. أنا متعب من السفر الطويل.
- عفوًا.. كان يجب أن تفصح عن تعبك.. يمكنك الهدوء والراحة.

في الميدان.. اجتمع العسكر.. وأنصاف العسكر.. العريف دائمًا يحب أن يقول للمبتدئ نصف عسكري.. كنت أنا

من أصحاب النصف.. وكثيرًا ما ضاق بنا العريف، وطبق الجزاء مرارًا.. لكنه كان يقول أنا وأنتم في العسكرية، ولعله كان واثقًا بنجاحه.

❀ ❀ ❀

ثلاثون يومًا مضت.. أمام الصندوق وقفت.. صف طويل أعوج.. تكدس في أعماق الفرحة.. كل يزرع أحلامه.. «يا حلمي الوحيد. هل تكبر؟ هل نأيك الممقوت يقترب.. أريد بندقية أشدها على الكتف.. أقول من خلالها يا مانع الطموح.. لتقتل الصوت البليد.. وقرية لا تعرف الأصول».

قبضت مرتبي.. لبست ثوب فرحتي.. لكنه قصير.. قلبي يمزّقني.. لأن «رحمتي» بعيدة.. يقتاتها الذئاب.. لا كنت إن لم أحمها.. بهيبتي ينهد حمقهم.. كم قلتها لهم.. ومانع لا يمتشق سيف الكذب.. يظل ركضه جرحًا يؤرّق المستحيل.

وجاء فجري الموعود.. بركضه البطيء.. تسعون يومًا مضت.. ولحظة التتويج تختال في عيوننا.. واصطفت العساكر.. تراقب التوهج.. من منبر النجاح.. توالت الأسماء.. تهز فينا النشوة الكبرى.. وضاقت الأصداء.. من اسمي العنيد.. يا مانع الطموح.. أقبل.. ركضت ركضة العساكر توسل الغبار تحت أرجلي من ضربة التفجير والثبات.. أديتها.. نعم.. تحية التقدير والقبول.. حملتها نعم.. وبندقية سمراء خلتها من الجسد.. تبادلت عشق الكتف.. يا يومي

البهيج.. لو أنها تراني.. من برجها المكنون.. لكن غدًا تمضي رواحلي.

❀ ❀ ❀

في قريتي التي تنادم النعاس.. أيقظتها.. أطلقت صوت بندقيتي.. قطعت سوط السخرية.. ليعلموا.. أنا الأزدي أنا!.. في محفل غريب.. سمعت شيخهم يقول:

- يا مانع الشرف.. رفعت رأسنا.. حملت بندقية الحكومة. اليوم أنت ضيفنا.

حل المساء.. رأيت رحمة تعانق السحب.. تباهي القمر.. وبوحنا يضج في الصدور.. وفي الغد القريب.. نكون روحين يضمنا الحب والصبر الطويل.

في منزل الضيافة.. ترجلت عن صهوة الترفع.. علقت بندقيتي.. أدخلت عيني في مخدع الحلم الجميل.. يا عالمها الطري.. أريدها حوريّة معطرة.. حجابها الضفائر المنمقة.

كان الصبح يبصق فرحتي.. يجلد هامتي.. عيناي تحفران الجدار.. الغرفة بكل ما فيها.. لا أثر للبندقية في أحضانها.. أين توارت؟!.. قد تكون سرقت.. هل يعقل ذلك؟!.. ربما لأنني بـ.. أعوذ بالله.. لا أريد أن أرجع إلى عفونة الماضي.

خرجت أنشد ضالتي.. ولحظة الإجهاض.. ترسم بعدًا للهذيان.. سمعت صوتهم يدك عقلي الجريح.. «يا مانع البهلول.. انتهى الحلم، وضاعت البندقية!!»

بطولات مانع الأزدي

بداية القول

علمي لكم، والحال لا تخفى بأرضكم.. مغلوب والغالب رب العباد، والناس في هذا الوطن تمضغ كلامًا، وأنا فاقد الحيلة. أذكر يوم عافتني البلاد.. أعطيت نفسي للرحيل، ومن سنين والفراق يولد فراقًا، لكن من كان له في هذه الدنيا نفس، لابد أن ينبت بأرضه من جديد، وأنا إلى بلادي رجعت، أحمل رموز القوى.. أنشد كرامتي، وللشمس أرسلت وجهي، وللناس غنيت أنا مانع.. لكن ظلم العباد تحدى رغبتي وحطم طموحاتي.. وعاد مانع أول الزمان يطارد مانع تالي الزمان، وما بين المانعين.. رجعت بهلولًا في نظر ناس البلاد، ولأجل أن أرتاح من ضنى الأيام، وأكون موالًا في فم التاريخ.. حلت برأسي فكرة الفعل البطولي.. وداويت نفسي بالخلود.. وقلت النهاية رقدة بين اللحود.. وهذا العلم من مانع، وقبل الختام، اسمعوا تالي الخبر.

عام الرمادة

دال

تشاءم الناس في ذلك العام ـ من ظهور نجم في ثمالة ليل صيفي.. كان ظهور ذلك النجم مثيرًا ومخيفًا، فقد نبت وهو يجر ذيلًا سديميًا متعرجًا، تتغير هيئته مع تغير الوقت.

مدلول

سنة رمادية.. شرب الناس قبحها.. أكلوا قديد الوقت في أحشائها أسرجوا النوم وغاصوا في الضجر، وأنا طارئ في عالم يبكي ولا يدري لماذا؟! حملت شيئًا من وقار التجربة.. أفرزت للناس بيانًا وحكمة.. كان مجلسي على ظهر الزمن، والعصور الغابرة في حكاياتي، تتثنّى.. تنسكب منًّا وسلوى، والعيون القاحلة تهجر الأرض، وتأتي إلى السماء برماح من خيال وقلق، حلمها أن تشرب من نجم الثمالة.. يحرن النجم فتهوي في حكاياتي.. وأقود سرب المتعبين.. أطحن الوقت الملول.. أزرع البيد حداة، ويضيق مزاري بفلول الزائرين.. أحتبي.. أملي على الناس بعضًا من أساطير الخلافة:

- «السحابة».

تركض الأفواه في حمى الضجيج.

- «الأرض أرضنا».

دارت الرؤوس..

- «وأمطري أنِّى شئْتِ».

أسهبتُ في التفاصيل اللذيذة.. أسكرتهم لذة الرؤيا، وغاروا في تباريح المساءات الرتيبة.. ثم حلت ديمة فوق النواصي المتعبة.. أغرقت كل الهموم المحنّطة.. وأنا في مزاري.. أسمع الأحجار بعضًا من تراتيب الكآبة.

الطوفان

لأسباب كثيرة تضاءلت فائدتي في نظر ناس القرية.. ولسبب واحد عادوا إليَّ.. فقد قزَّم الطوفان كثيرًا من شجاعة أهل القرية.. هذا الطوفان الذي اصطلح على تسميته بسيل «الاثنين».. قسم القرية نصفين، وخيَّم جو العزلة أيامًا.. كنت خلال ذلك أحاول أن أصنع مجدًا أسطوريًا.. ولأنني الوحيد الذي يجيد السباحة.. هذه المهارة اكتسبتها في غربتي، ولأسباب أجهلها ظللت وحيدًا في هذه الممارسة.. قلت لسبب واحد عادوا إليَّ.. ولعلهم أرادوا رشوتي حين دعوني إلى حفلة عشاء خاصة.. رفضت، واختفيت.. لم أعط أحدًا تفسيرًا لاختفائي.. كنت أسمع همسًا يضايقني: «هذا المانع البهلول لا أمل يرجى من ورائه».. ركبني عناد التحدي.. أشعلت في نفسي شيئًا من نخوة جدي.. حدَّقت إلى وجه السماء المطل بقار الأرض.. بقع هامشية سوداء، تخفي نشوة البطولة.. يا زمنًا يعبر خاصرة الطوفان.. أشعل ضوء ساعدي ومجدافي وقلبي، كي أصعد فوق جماجم لا ترى إلا نواصيها.

يومان.. ثلاثة.. خرجت بعدها إلى جوقة تهذي.. أحمل أمل النجاة.. تصايحوا.. تدحرج الاندهاش في

أعينهم.. «قارب ومانع».. تغاضيت عن هذه الإهانة المبطنة.. وخطبت فيهم خطبة «زيادية»:

«يا ناسي العقلاء!! أنا ابنكم البار.. ضايقني ألم العزلة الذي سرى في نفوسكم، ولأن فرسانكم لا يجيدون فن الركض فوق الماء بقدر ما يجيدون الركض فوق الجماجم والقبور، فهذا قاربي صنعته بيدي، وهذا أنا مانع الأزدي».

زكمني فحيح الثناء والإعجاب.. انطلقت زغاريد النساء تزف إليَّ البطولة.. توجني الشيوخ بالدعاء الحار.. امتلأ القارب بقرب الماء الفارغة، وبشيء من الدقيق والسمن والعسل.. كان عليَّ أن أبحر إلى النصف الآخر من القرية، حيث توجد البئر الوحيدة والناس الجائعة.. سحبت قاربي إلى حافة الماء.. كانت العيون تشعل فيَّ روح المغامرة، لم يكن لديهم إيمان مطلق بقدراتي، لذلك ظللت مسكونًا بهاجس التحدي.. حرَّكت مجدافيَّ.. «بسم الله مجريها ومرساها».. غمرني شعور لذيذ.. بدوي أنا. أنتعل البحر، وأمتشق الريح، وهذا المدى المائي لم يعط مفتاح صدره إلا لمن يستحق.. جدي من زمن رملي سقاني عشق الشمس فكنت بطولة قبل مجيء البطولة.

شدّني صراخ الضفة الأخرى.. تهاوى قاربي واستوى.. ترجلت، وكنت كفاتح محمولًا فوق أعناق الرجال.. دبَّ الغرور في ذاتي.. تذكرت عظمة الأبطال.. تقيأت هذا الوباء قبل أن يتخلق في دمي.. كانت شمس الظهيرة تكشف عن عفن عتيق.. اضطهدت شيطان الغرابة في صدري.. نحرت البئر..

تولى القوم سقي القرب الضامرة.. أذَّن أحد الرجال بأن مانع البطولة راحل، فمن كانت له حاجة فليبلغها إلى مانع.. أسكرني هذا النداء، وأدركت سر البطولة.

كان الوقت عصرًا، والمدى المائي يزفّني نحو الضفة الأولى.. وأنا أطاردها بذاكرتي: «آه يا رحمة، أيتها الفاضلة في زمن النخالة.. بطموحي لم أنلك، فهل بالبطولة ألقاك؟!».

فجأة صفحة الماء توقظ فيَّ الرجولة.. والريح تعاند حلمي الفريد.. ازدادت حمّى التحدي.. كنت في عنق النهاية، والموج الجبلي يغمرني، ويسقطني في قاع عدمي الرؤية.. توسلت إلى ساعدي ورجلي.. قبلت الطوفان كثيرًا.. كان الموج يدفعني كقشة نتنة نحو الضفة الأولى.. حُملت إلى داري.. في البدء قتلني همسهم الغارق في السخرية، ثم دار رأسي في غلالة نوم طويل، ثم رأيت فيما يرى النائم أنني أبكي وجدي يبصق في وجهي.

رأس النمر

ركبت صهوة التوحد أيامًا.. أذابتني الحيطان في جمودها.. حتى عددت أنفاسي غزوًا خارجيًا.. فكرت في انتهازية هذا العالم، والمقاومة التي عليَّ أن أبذلها.. لست أنا مانع إنْ لم أقهر جبروتهم.. اللحظة ستكون أولى خطواتي إلى عالمهم المثقل بلؤم الطغاة.. استفزّني صخب النهار.. عيناي أوغلتا في محيط الرفض.. كانت الوجوه تنتقل مزيجًا من الخوف والتبلد.. عشرة أيام من الاختفاء تبيض خطرًا خارجيًا.. حتمية

البطولة تنبت في أعماق نفسي.. أحطت علمًا بكيفية الخطر، لذلك لم أكن في حاجة إلى شيخنا وهو يشدد في بيانه المئوي على ضرورة القضاء على ذلك «النمر» الذي أباد الغنم وأزعج الإنسان الآمن.. أكد بعضهم أن النمر يظهر في أوقات مختلفة ليلًا ونهارًا، مما جعل فكرة القضاء عليه تبدو صعبة، تنازعني شوق القضاء على هذا العدو.. «يا مانع أطلق رصاصة، واصعد سلم المجد».. ارتدى الحذر شيئًا من عزيمتي.. «آه يا بندقيتي المسلوبة مني في لحظة نشوة لن أنساها».

قيل في سيرة هذا النمر الأشهب، إنه طغى في البلاد، حتى أن ما حوله من الجبال والوديان أقفرت من الحياة، ولما كان الفشل يقف في وجه كل المحاولات التي بذلت للقضاء عليه، فقد تجمهر الناس وأعلنوا تضامنهم.. خطب فينا شيخنا ولخص أفكاره في تكوين فريق مجهز بالقوة الرادعة، وبصوت حماسي أعلن أسماء المنتدبين للقضاء على النمر، ثم تابع بعد صمت «وأنت يا مانع ستكون قائمًا على شؤونهم».

هرول لساني بكلمات حادة: «لست أنا من يقبل دورًا كهذا».. ابتسم الشيخ بخيت: «أعطوه بندقية!!».

أغمدت ريح الإهانة في حذائي.. بعد هذه الجولة سيعرفون من هو مانع؟.

انطلقنا نطلب الثأر.. الليل كان يحتضن استدارة القمر.. كنا خمسة تحت إمرة ابن شيخ القرية.. وصلنا إلى الماء في سفح الجبل.. كنا له في كل المنافذ المحتملة.. أما ابن الشيخ

فقد احتمى في مكان آمن.. كنت في الناحية الجنوبية من الماء، مصوبًا بندقيتي نحو بداية الطريق. مضى الثلث الثاني من الليل، ثم الثلث الأخير ولم يظهر.. وفي الليلة الثانية عبث النمر بخطتنا، وفي الليلة الثالثة ولما انقضى ثلثها الثاني، وكان اليأس قد تهدل في نفوسنا.. أسمعني الهواء أصواتًا متداخلة متخاصمة.. قدرت أنه هو.. حدقت، وحدقت، وحدقت.. كساني رعب اللحظة.. كان هو.. والأرض تتوسل إلى أقدامه الضاربة بعنف.. أخفيت ملامحي في ظل صخرة ناتئة.. اقترب.. تأهبت.. كانت البطولة بين الرصاصة ورأس النمر.. هيكله ظهر بضخامة غير مألوفة.. صوبت بندقيتي بإتقان.. تأنيت.. تأنيت.. تأنيت.. وانطلقت رصاصة البطولة.. رفعت النمر وأقعدته.. أطلق الآخرون رصاصاتهم.. كنت أول من يقف على رأس النمر.. فصلت رأسه عن جسده.. حضر ابن الشيخ والآخرون.

قلت بنشوة مفرطة: «خلصت القرية من هذا الخطر».

توجه أحدهم بحديثه إلى ابن الشيخ: «يحسن تدبيرك وتخطيطك تمكنا من القضاء على النمر الأشهب».

ابتسم بغباء متوارث: «يجب أن نتوجه بالشكر إلى شيخنا».

- أنت البطل الحقيقي.

- أشكركم.

ذهول غرس أنيابه في عيوني.. جنون كان يستأذن في الدخول إلى عقلي.. في القرية حاولت وحاولت وحاولت،

وأخيرًا فرض الشيخ عليَّ الخيار الصعب.. السجن أو الخروج..

وكان الخروج تحت وابل من الحجارة.

الحصار

امتطيت الخروج إلى اللامعلوم.. أرض العالم تخنق قدميَّ.. وتصادر ذاكرة الوطن في عينيَّ.. وأنا أبكي للأسف الذي حدق إلى وجهي ذات صباح.. كان صباح القرية مأسورًا في عنق المساء.. لم تعد صورة العالم كما حدثني جدي.. قريتي التي عاقبتني يوم فكرت أن أكون بطلًا.. قريتي التي زرعت في الأعين صمتًا بذيئًا.. قريتي التي طلبت منها انتماءً، فقالت تطهرّ.. تطهّرت.. وذات فجر قتلوا فيَّ الطموح.. والآن وقد خرجت أحمل حُنَيْنًا وخُفّيه في جيبي.. ألف سؤال يعاشر رأسي.. والطريق مازال ملتهبًا بالأقدام.. قدماي تتوسلان إلى رحيق التراب.. والعالم يستحمق في الغداة والعشي.. لابد أن أضرب إليته المتهدلة بسخاء.. «يا عقلي اصنع خنجرًا واحفر وريد النفاق». لم تعد البطولة نفسها تعنيني في شيء.. أنا بطل بلا أوسمة.. وهذا مصير كان يجب أن أفهمه.

في عالم الخروج.. استقبلتني أعين مشتعلة بالرغبة.. تخترقها خلجان تبوح بنفس هزيمتي.. ساءلتها عن غاية التجمع.. وكانت الدائرة التي تجمعنا تكبر، وصبوة الخروج تمزقنا.. «والآن أيها الطريد».. طريد؟!.. كان عليَّ أن أفهم أبعاد المأزق.. حررت تفكيري من قيود النيات الحسنة.. كان

الرضا في العيون يبارك أولى خطواتي.. أغمدت ريح الهزيمة في غمد العدم.. وكان من الضروري أن نصل.

عندما غاص الليل في أعين الكائنات.. أسرجنا الركائب وانطلقنا.. راقصنا النجوم، وغنيت لرحمة.. حتى كان محيط القرية.. توقفنا.. في الأعين تطاولت منارة الأبطال.. قبلتنا نشوة الإصرار، ثم لما كان ذيل الليل أوقدنا الحصار.. أهملتْ القرية أهمية الحصار أيامًا.. حدَّق اليأس إلى عيوننا.. بسمل أيوب الصبر في آذاننا.. ثم قوبل الفعل بضده.. تناقص الضد حتى توارى صاغرًا.. أصغينا إلى الحوار القادم من عمق القرية.. كنا الأقوى.. وكانت طموحاتنا أكبر.. لذلك ظل موقفنا ملتهبًا بالإصرار..كان الدخول غاية أولى.. توجع خصر القرية من حصارنا.. وظلت الأيام تولد عنفوانًا وبطولة.

جاءت لحظة الإشراق.. وفد من القرية يسلم مفتاح المنارة.. سرت في موكب بطولي.. في ساحة القرية.. هتفت الجموع «أهلًا بمانع البطولة».. صعدت المنارة.. كانت الجموع تحدق.. تناسيت إساءتهم في موقف كهذا.. حييتهم، وأكدت لهم أن هذه البطولة، ليست من أجلي، بل من أجل جدي، و«رحمه» وكل الضعفاء.

تجليات اللحظة الأخيرة

تقاصرت قامتك.. أقعيت كالكلب.. شدوا وثاقك.. تحلق الحرس حولك.. لحظتئذ كنت تحدث في فراغ.. تبوح بالصديد.. ويومك الكئيب.. سيف يقطع ذاكرتك.. لعلك كنت أحمق.. لعلك لم تقصد قتلها.. ربما أردت زرع الخوف في صدرها.. لعله الغضب.. ارتدى عقلك.. لعلها الغيرة.. لعله.. لعلها.. تبريرات بليدة.. لم تقتنع بها.. ولم تبح بها.

جرح القناعة ينبت في قلبك.. كنت وحدك صوتًا داخليًا.. لا تملك الإفصاح.. عيناك ترصدان عالم المحكمة.. حياتك كلها لم تدخل محكمة.. ويومك هذا.. بداية الركض إلى الخلف.. كنت ترهب المظاهر الرسمية لكنك بشجاعة غريبة.. هرولت إلى المحكمة تسمّرت أمام القاضي.. قلت إنك قتلتها.. ابتسم القاضي.. قدّر موقفك.. دعاك للجلوس.. انتابتك موجة من الهستيريا.. كنت تصرخ.. «قتلتها.. لأنني مهزوم.. لأنني مقتول من الداخل ألف مرة.. عذابي يلتهب مع لحظات البقاء.. أريد أن أموت».. ضجت يومذاك قاعة المحكمة.. لعله معتوه؟!.. لعله مأجور؟!.. تساءل الجميع.. وكنت لحظتئذ تدخل عالم الصمت الرهيب.. نسيت أن لك لسانًا تمامًا.. قال الأقارب.. «إنك مجنون».. لكنك هززت رأسك بالنفي.. لم يعرفوا حقيقة نفسك.. لم

يعرفوا مدى حبك للضحية.. لو استكانوا في حنجرة الصمت مثلك.. لكنهم يقولون.. «الحي أبقى من الميت». أي حياة يزعمون.. أنت لا تريدها.. نعم الحياة بالنسبة إليك عبث بعد موتها.. أنت قتلتها بحبك.. يجب أن تضحّي.. أن يتوهج حبكما في العالم الآخر.

جلادك الآن يتباهى بسيفه.. ينظر إلى عنقك.. يتلمس حد السيف.. كنت قد سمعت عن مهارة جلادك قبل أن تقعي أمامه.. عندما رأيتها.. صوبت بندقيتك بعشوائية.. لم تخطئ صدرها.. لعله حظك السيئ.. كثيرًا ما كنت تخطئ الهدف.. لكنك هذه المرة..

الآن جسدها يستلقي في ذاكرتك.. دمها المتخثّر ينهش عقلك.. وعالمك الخارجي يوغل في المتاهة.. أنت لا تعي شيئًا.. لا تشعر بالركض فوق وجهك.. كان شيطان الأرض يحفر عينيك بخنجر الخيانة.. دفعك إلى قتل نفسك.. إلى قتلها.. إلى الانتقام.. أنت لم تنتقم.. حاولت.. كنت خائبًا.. اندفعت ثورًا هائجًا.. زرعت مخالبك في صدر العبث.. هل تذكر لحظة التوقف؟.. وذاك المساء الحزين.. وتجليات الخيانة.. كنت تراهما معًا.. ينفيان وجودك.. يسرقان مكنون قلبك.. أنت تغلي.. التحدي يكبر في نفسك.. يتحول إلى دمار.. يحدثك شيء من داخلك.. بأنك إنسان هامشي الوجود.. تخوض في مستنقع السأم.. تتولد في أعماقك خرابة عفنة.. يأتيك من جدب السنين.. وجه جدتك الحزين.. يركض في سلة ذاكرتك.. يلعق غبار الرغبة النزقة..

يقص عليك شيئًا من تفاصيل الخيانة.. لكنك تحدق بقوة.. ترفض أن تتذكر.. ترى أنه لا يستحق الشفقة.. اغتال سمعتك.. اغتصب أنفاسك اللاهثة، في لياليك الغنية بالبوح.. في عشقك الأرجواني.. وذراعاك تحيطان بما تعتقد أنك تملكه.. ليتك وزنت الأمور بالضبط.. ماذا تكون بالنسبة إليك؟.. ثوب متى ما اتسخ نزعته؟ أم عشق يتوضأ بدمك المتدفق؟.. هكذا كنت تسأل نفسك.. لكن.. كنت تحبها وتكرهها.. ومرة تقسم أنك لا تدري.. شيطانك يختبئ في كهوف جمجمتك.. يحوك خيوط المشهد.. لعلك كنت دمية في يده.. كنت تطأطئ رأسك.. قال لك القاضي: «ارفع رأسك».. ليته يعلم بما تعانيه.. ماذا تقول له؟ أتحدثه عن الندم؟! عن الحزن عن القضاء والقدر تبدو واعظًا.. بل منافقًا.. من يقتل لا يبرر.. لكن حالتك عجيبة.. قتلتها.. هو.. فر هاربًا.. لم تلاحقه.. كأنه لم يغتصب مخزون ذاكرتك.. ولياليها الحالمة.. لو فكرت قليلًا.. كنت تردد أسطورة التفكر.. ماذا عساك أن تفعل؟.. شيطان الأرض.. بل شيطانك أنت.. يدفعك إلى حلبة الانتقام.. ينثر رماله السوداء في صدرك.. يستلقي في عينك فلا ترى.. لعلك الشاهد الوحيد على فعلتك. أنت القاتل، والشاهد.. عندما قتلتها.. لم تقتلها هي.. قتلت فيها الخيانة.. كنت دائمًا تحاول أن تجد مبررًا.. قلت للقاضي: «إنني قتلتها لأنني أحبها».. لم تكن صادقًا.. حاولت أن تطهّر سمعتها.. لم تذكر حادثة الخيانة.. سألك القاضي كثيرًا.. لم تضف شيئًا..

علمتك بموقفك.. مقتول في حالة البوح والصمت.. ما الفائدة إذن؟.. ما أجمل أن تبقى ذكراكما جميلة.. عاد القاضي وسأل.. لكنك ابتلعت جدارًا من الصمت.. كنت قاتلًا مثاليًا.. لا تريد للقضية أن تكبر.. التحقيق قد يعذبك.. وأنت متخم بالعذاب والشقاء.. حياتك كانت معها دهشة مفاجئة.. خبا توهجها.. قضت نحبها.. فغرت بانتظار حكم مؤكد.. نبت في رأسك هم جديد.. أمك المهزومة من الداخل والخارج.. لم ترها منذ ذلك المساء.. قالوا لك إنك قتلتها قبل أن يأتي أجلها.. تصوروك قاتلًا لكل الناس.. ليتهم يعلمون.. لكنك كنت أصيلًا من حيث لا يدرون.. عالم الخاص يفور بالمعاناة.. قتلتها نعم.. لكن لماذا؟!.. كانت الأسباب تؤرّقهم.. وأنت تسكن قلاع الصمت.. تلبس الحزن.. تبصق العالم بعينيك.. وحولك يدورون.. يحاولون الصعود.. قمة أفكارك كانت شوكًا وأحجارًا خنجرية.. أنت لا تريد حياتهم.. بعد من تهوى كل شيء عدم.. عهدكما بدأت نهايته بالخيانة.. من أجل العهد قتلتها.. ويسرك أن تموت من أجلها.. أنت غريب حقًا.. في حياتك وموتك.. تظل شوكة في حلق الحب.

❀ ❀ ❀

في ساحة القصاص.. جاء الحكم: «ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب».

كنت في عالمك الآخر قبل أن تصل.. سمعت جلادك

يتحرك خلفك.. يرفع «غترتك» عن عنقك.. يمسح عنقك بالسيف.. يريد أن يعذبك بالخوف.. وأنت بهدوئك كأنك تمثال أبدي السكون.. كنت تسمع الحكم يتلى بصوت جهوري.. وقبل أن يصمت الصوت كان رأسك قد..!!.

الذئب.. في أعماق الطين!

في داخلي تنداح صحراء الظمأ.. سماؤها سوداء.. نباتها بوح مرير.. وجوعها يقتات رغبتي.. كداري المتآكلة.. وعالمي الحقير.. يبيع الجوع.. يسقي الأرض بالنار والأشواق.. وفوق حد السيف نقفز.. نعالنا من السراب.. نموت.. نعرى.. من يقتل الظمأ؟!

بوادينا.. غبار يثور.. طاحونة صدئة، تتجشأ خلاصة الأقوال.. بوادينا.. العناقيد تذبل.. وأخرى تداس.. ثعالب في الضوء، لا تقوى على فعل الحقيقة. بوادينا.. ذئاب.. تلبس الأجساد والأرواح.. من أطلق الوحش في أجسادنا؟

أنت أيها الرأس.. المعمّم بالهمجية.. تلغي الأصيلة.. تمحو هيبة الوقار في وجهك.. أنت تقرر مصيرًا ليس من شأنك.. تقفل الباب في وجه المصير المشترك.. في ذلك المساء الحزين.. أتيتك، أحمل رغبتي المشروعة.

تبارينا في صحراء العبث.. كنت وحشًا.. مضغت رغبتي الوئيدة.. نفثتها في وجهي النحيل.. كنت ترفض مبدأ الاتحاد.. ترى أنني لم أحظ بشرف الانتماء.. يا سيدي والاف سواك.. الحب روح الانتماء.. ثم إن بيننا سفرًا طويلًا من الشوق والإيمان.. لكن نبالك الحادة.. تقطع سيف البيان

والبلاغة.. كنت تراوغ، تبحث عن الوجه الآخر لكياني.. أنا أعيش في قلب التوازن.. لا أنادم الفقر.. لا أسطو على حياة الضوء والبهجة.. وتعود تصهل.. تركلني بنصلك.. خارج دارك المعقمة.. كنت أبحث عن هوية.. رحلة مملة.. عمري أضعته أجري فوق وجه الحب.. واليوم من العراء إلى العراء.. أشكل حياة ضئيلة، لكن الجوع في داخلي.. والذئب يسكنني.. أريد امرأة تجمع أحزاني.. نمشي على الدرب.. ندق إيقاع الأماني المخملية.

لكن أفقي كئيب.. وهذا العالم المطعون بالجهل.. في حضرة الثعالب.. يحتضر.. يداوى بمسحوق الكرامة.. واليوم تنشق في وجه وادينا دروب فاتنة.

في يوم كئيب مضى.. كنت أُمزق من الداخل.. بحثت عن الدواء في وادينا.. لم أجده.. ركبت صهوة الأميال الطويلة.. شربتني دروب الغواية.. نعم وطئتها.. كانت أول أرض في حياتي.. أرض مزروعة بالشوك والخمول.. تمتص ملح الإبطين.. تسكن غابة الصدر العشبية.. لم تكن بكرًا.. فأبذرها زهور العشق الندية.. كانت قطعة عديمة المذاق.. تناحرت في داخلي توافه الأشياء.. هوت ركائبي.. وذئبي العنيد.. يدق بابها المفتوح.. وغفوة كالموت غاصت في دمي.. جزائر منسية.. أصداؤها تضج بالنهيق.. وعدت منصورًا بلا متعة.. وبيرقي يبكي انتصارًا بلا مقاومة، لكنني تقيأت خلاصة التجربة.. ما عدت أبحث عن أرض خراب.

كانت خطواتي الأخيرة تدافعني إلى الباب.. فتحته، ودخلت.. أقبل قطي الأسود يموء.. عوى الذئب بداخلي..

امتزج الصوت.. انطلق في حنجرة الليل الأخرس.. وحشتي.. وحدتي.. تمنّيت سحقها.. والدها المأجور للجهل والقسوة.. أذابني.. امتصني.. بصقني في وجه العدم.. ليته أعطاني دوائي.. ليته أخرج الذئب من رأسي.. ليت هذه كانت تؤرقني.. في حضن الأرق.. هدني تعبي.. فتشت في مراكز الأحلام عن مخدر.

صحوت هذا الصباح.. أشكو حُمى الإهانة.. مع كل الأمنيات.. سأظل ذلك الموظف.. المستخدم.. المدير يريدك.. كالعادة.. أذهب إلى منزله.. أحمل قوته اليومي الطازج.. إنني أحتقره.. لكن من يعلق الجرس؟.. النهاية معروفة سلفًا.. أمضي إلى بيته.. أحمل قوته اليومي الطازج!! إنه يصر على الطعام الطازج.. جوعه محصور بين الطعام والشراب.. أما أنا.. فجوع الرغبة يعصرني.

مضيت إلى داره.. طرقت الباب.. أنشق عن ضياء أسطوري.. انصدعت السماء في عيني.. ووجهها الحليبي يشربني.

- تفضل.

وابتسمت..

غمرتني دهشة.. عالم مخملي لم أدخله من قبل.. روحي العطشى.. شربت الدعوة بنهم.. دخلت عالم شهريار المقنع.. لا أحب أن أكون شهريار.. أركض بين القتل والمتعة.. وأنت شهرزاد.. بذاك السوق تبتاعني أقراطًا هلامية.. كلانا تموه بداخلنا الحكاية.. في مملكة الحدود..

يبقى الصحو حارسنا.. لا للغفوة الكبرى.. ولكن.. هل تعلمين؟ على طول الحدود.. تراشق.. ضوء خافت يبخر.. على طول الحدود.. تعانق بؤسنا.. مسكونون.. بالهم الدفين.. مسحوقون بالحرب الخرافية.. من يطفئ الحرب بالشهد؟ من يشعل الحرب بالطاعون؟.. لا تدرين.. لا أدري.. وهم فوق الجياد.. في المضمار.. يجرون فوق أديمنا.. وفي الليل.. تبدو مراصدهم كالثعابين.. تلتف حول رقابنا.. والذئب في زماننا لا يبتعد.. أنيابه في أحشائنا.. من يقتل الذئب؟.. لكي نستريح.. كالمحارب دومًا يمل الحصار.. يريد نتيجة!! من؟.. أنتم؟!! برؤوسكم اليانعة!!.. التي لا تعرف الحق إلا في الممات.. نحن؟ بذئبنا الملعون، كالأفعى يجول في ساحل روحنا المقفر.

كانت غنائم الذئب تبدو أمامي، تفاحتين من أنس لذيذ.. خيوط حريرية تشاغل بؤسنا.. ونحن على الحدود.. نحارب ذئبنا.. لا الذئب مات، ولا نحن انتهينا.. أخيرًا حبست الذئب مرة أخرى.. توغلت في أرض اليباب.. لا أريد الوقوف بباب الحدود.. وعادت خيولي.. تجر هزيمة حرى.

فتحت باب داري العتيق.. منشور حرب آخر.. كان تحت عقب الباب.. قرأته.. كانت تواسي حبنا.. تلعن السجّان والسجن المميت.. كان هولاكو أباها.. في بحار الهم يقتاد السبايا.. ويتاجر بالصبايا.. ليعيش جلادًا بسيف من جهالة.. كانت تعزى حبنا المبتور.. تشرع الباب في كف الحدود.. وذئبي المأفون يعوي.. أصابني الدوار يا بحري المسكين.. هدوؤك الرتيب.. يثير سخطي البليد.. ضفادع

تنق.. تعكر المياه.. تبعثر الرمال.. ونفسي الوليدة.. ما بين خنجر وساعد.. مقطوعة الوريد.

قررت امتطاء اللذة العميقة.. في المساء أطمس المعالم الوهمية.. معاقل السجّان سوف تندثر.. أو ليتني ما قلت ما أقول.. نزقي يقرر.. وعالمي لئيم.. أحسست بالخواء.. الجوع صار جوعين.. بسطت سفرة الطعام.. دنوت منها.. قدم قطي الأسود.. يموء بحدة.. رميت إليه بقطعة لحم صغيرة.. شمها فقط.. ظل يموء أتراه يعرف الذئب مثلنا؟! أنا الآخر.. في أعماقي يموء البوح بشراسة.

دفعني الليل إلى عالمه.. ليل يفوح بالرطوبة.. أقبية مخملية.. تضج بالأجساد الطرية.. تنسلخ الوجوه من كل رتابة.. تزحف نحو عالمها الارتوازي.. وخلف أبواب المنازل، يقذف الهم اللعين.. تلتقي الأطراف في مودة.. وشهريار يرتدي ثوب الرجولة.. وفي بلاطه المسحور تأوي شهرزاد من ليله المخبوء في الرواية تجيء شهرزاد.. في مخدع الحلم الجميل.. حورية معطرة.. حجابها الضفائر المنمّقة.. تبوح شهرزاد.. «يا شهريار.. في ليلة العناق.. تألم السيف البليد.. وحبك المجنون لن يكون».

لكن شهريار.. ينحر الذئب قربانًا لعيني شهرزاد..

كان ذئبكم مقتولًا.. أما ذئبي الملعون.. فقاتل سفاح.. يمتصني يومًا إثر يوم.. وليلتي هذه بداية الركض نحو الأقبية.. حملت منشور الحرب معي.. أعرف جغرافية الموقع.. قد جئت من قبل مسالمًا.. الليلة أتى غازيًا.. على خط الحدود، يبدأ الامتزاج.. نقطة الصفر كانت.. بدأت بالاندثار في معركة

اللذة.. ركبت خيول التحدي.. حملت رمح الغواية في صدري.. وكانت الحدود بوابة مشرعة.. المكان مسكون بخوف مرير.. انزلقت في متاهة المكان.. في فوهة السّرداب تاهت نظرتي.. يا قلبي الفريد.. هل تحتمل طعن الحراب.. كالنصل في خاصرتي.. امتصني نزف القبل.. ذويت عند بابها المحطم.. وذئبي المأفون يحتضر!!

الرأس!!

إهداء: إلى س. ع. في زمن اللاءات المرة

يتقد الغيظ في صدره.. يدير رأسه.. يتركه يهرول داخل أحشائه.. ترهقه حمّى القسوة.. يلبسه صوت تعود أن يسبح في تجلياته، لكنه يندب نفسه.. يريد رأسًا يوازي رأسه الحليق.. كان من أمنياته أن يجد وسادة من أذرع ناعمة، ولأن أمنيته بدأت صوتًا، فقد ظل يهذي لذلك الطيف البعيد.

يثابر في غرس علامة استفهام طفيلية في مقدمة رأسه.. «حتى قيل في تأويل اندحاره وبلوغه درجة أليمة، أنه استيقظ ورأسه بين رجليه، ظن في البداية ألا علاقة له بتلك الجمجمة العفنة. شيء ما وخزه.. لعله الصوت الذي اعتاد أن يشربه، كانت وهي ترسل صوتها له.. تشعل ألف ظلمة عميقة».

يقرر أن يدخل رأسه.. تعذر عليه أن يشقي نفسه.. يشرب جرعتين من صوتها الدافئ.. يتيمّم بأمنية أخيرة.. يتدثر بالجرأة، يرتكز كرمح بابليّ فوق هامته.. لم تعد اللحظة الزمنية تعينه في شيء، فقراره أخير.. لابد أن يكشف القناع.. «ظل يبتعد عنها بمسافة الماء الغائر في الرمال».. هو يعلم، لو تساءل صرخ، وجد مبررًا لبقاء رأسه.. كوابيسه

تكبر، ورأسه يحتقن الهم.. في سن السابعة.. كان يبكي من كابوسه، ثم راح بين العاشرة والعشرين يهرب من كوابيسه التي طورت نفسها.

الآن يفقد جرأة البكاء والهرب، يظل يجري في عيون الهم.. يماطل قرار الدخول في عتمة الرأس، لابد أن يعرف ذلك الهاجس الذي يجني رأسه.. بدموع تراثية حفظها من تلك المآتم بكى بآلية.. نوع من طقوس اللحظة يمارسها.. يتحسس حرارة رأسه.. يده ترتعش.. مفتاح الدخول يسقط.. ينحني.. يلتقط المفتاح.. يجد رجليه في تطاول.. يكبر كالعاصفة الهوجاء.. يصطدم رأسه.. بالسقف.. يتألم.. يجلس.. يعود جذعه إلى التطاول.. يحب أن يعرف إلى أي مدى يريد أن يصل رأسه.. ينصدع السقف.. يخرج الرأس كنبتة شيطانية.. يغمض عينيه من حرارة الشمس.. يغلي أديم الرأس تحت الوهج الناري.. يحس بالضمور.. يتهدل رأسه على صدره.. تتقلص المسافة بين الرأس والقدمين.. يتلذذ بالارتياح الذي غمره.

يعاوده مشروع الدخول بإلحاح أكثر. في رأسه تكوين غريب، يهدد رغبته الحادة.. يكاد يبكي.. يرفض عجزه.. يحدق إلى رأسه.. يحس اللحظة بترسبات ملحية في تجويفه الداخلي.. يذكر فلسفة لأحد العارفين بفحوى الأمور.. «الملح وسيلة لقتل العفن، ولكن..».. نسي قضية الملح في الرأس، أو لعله تظاهر بالنسيان.

يستجدي من تعبه لحظة قوة.. يطارد فكرة الركض في عينيه.. يمسك بها.. يطوي رأسه بين ذراعيه.. يقاوم فكرة

النوم الوليدة. يبصق في عيني رأسه.. تتحداه بوقاحة.. يأسف لجرأتها، لكنه يثابر في سيره.. المخاض يشعره باستدارة رأسه.. في أذنيه يطن رنين متمرد.. لضمورها يتألم.. يتحسسهما.. حجم المعاناة يتبلور.. يحاول أن ينتزع ذلك الثعبان المتثني حولهما.. يمقت سمّه الحارق.. يقسم أن ينتقم من الذين حاولوا الإساءة إلى رأسه.

بليد، يغمره شعور كهذا.. يتألم.. كالآخرين يسيء إلى رأسه.. يعاود فكرة الدخول.. يراقب في عينيه مأساة تبول على نفسها.. يتقيأ مرارة الأفكار.. يُنصت إلى لسانه البذيء.. يستقذر وقاحته الطارئة.. يقضمه بأسنانه.. يتوجع.. لعابه يمتزج بشيء من دمه.. يكومه خلف شفتيه.. يبصقه إلى الفضاء الخارجي.. يتولد في ذاته ارتياح لهذه الكفاءة الجارحة.

يصنع من نفسه عراقًا.. يشعل البخور في حضنه.. يحمل رأسه بين راحتيه.. يشعر بثقله.. يبحث عن طريقة مريحة.. يقبض على ناصيته.. يُمرجحه فوق انتفاضة البخور.. عيناه تدمعان.. حلقه يجف.. لسانه يبحث عن ريقه المبعثر.. يقذف به داخل حنجرته.. بعمق يتنفس.. لهاثه يتصاعد في ارتباك.

«هي، كانت بداية إصراره.. ألقت بسكين الرفض في صدره.. حاول أن ينزعها.. انشطرت.. تبعثرت في شراييه، ورأسه ظل شاهدًا أخرس.. لم يشهد حيادًا بهذا الحمق.. ركل رأسه بانفعال حاد.. وبّخه لسانه.. اعتذر عن تلك الإهانة غير المقصودة».

يضع رأسه أمامه.. يتساءل.. أي شيء يجعله أخرس.. تطل من عينيه ومضة غريبة.. يلاحق إشعاعها.. يصفعه سراب

اللحظة.. يكاد يترجل عن رغبة الاكتشاف.. لكنه يبعثر هلامية السراب.. يبحث عن كيفية للدخول.. يتمطى.. يجرب أن يدخل بانسياب ناعم.. يفشل.. يحاول أن يدخل بآلية.. يمطره لسانه بوابل من النصائح.. لسانه يظل ضد الفعل.. يقرر أن يتعامل معه بقسوة.. يربطه بسلك نحاسي.. يمد السلك على طول قامته، ثم يربط الطرف الآخر بإحدى قدميه.

يلغي حركته.. يتنهّد بعمق.. يعاود التحديق إلى رأسه المتورم.. دوامة البحث تضنيه.. يتذكر من تداعياته الخوف.. لكنه يضطهد هذا الخاطر.. يجبر نفسه على التعامل بجدية.. يكتشف حالة الصمت من حوله بنشوة مفتعلة.. «رأسه الأخرس.. لسانه الملجوم.. بوحه الدفين».. تتحول نشوته إلى وحشة.. يهتز رأسه.. تلدغه حمّى الغليان.. تجتاحه نوازع هستيرية.. بانفعال جنوني.. يرتمي بثقله على رأسه.. يدوسه بقدميه.. تقفز عيناه في الفضاء.. يحس بلزوجة الدم بين أصابعه.. يغوص في حمم الدهشة.. يبحث عن التوازن.. لكن رأسه كان يتصدع.

آخر ما جاء في التأويل القروي

جو ملائكي يبذر عالم الصحو في عينيها.. أحستْ بتكوين غريب يحط على رأسها.. «جاء في التأويل القروي، إنها بركة ملاك، في ليلة قدرية، في العشر الأخيرة من رمضان».

كانت قادمة من طقوس الغفوة الممقوتة. تعيش بين فواصل التاريخ.. تحمل مأساة الجليلة.. تذرع المسافات الملتهبة.. تطأ قاع الليل.. تغني لأهله.. وتاريخها الرملي يندثر بين يديها.

❀ ❀ ❀

روى القروي الأسمر

بينما كان المؤذّن يصدع بصوته عتمة الليل.. طرأ على جبين القرية ندب وليد.. انتعل المؤذن.. أمسك عصاه.. بسمل.. ركض.. اقتفينا أثره.. خلف المسجد.. تكومت.. تحمل خطيئة التاريخ في عينيها.. لم تبك.. لم تصرخ.. أخذت تروي، بلغة العالم السفلي.. تفاصيل الغربة الداخلية.. والصوت الذي ابتلعه شفق الغروب وخطى الليل التي التهمت أقدامها.. وعالم الغموض ينخر أدمغتنا الطينية.

اجتهدنا في الرأي.. ظل بيننا وبين الحل مسيرة يوم على الأقدام.. آخر الاجتهادات لم تسفر عن شيء.. ظلت مقولة المؤذن أفضل الاجتهادات.. «نحدد إقامتها!!».

❀ ❀ ❀

لأننا كنا نخاف من المجهول.. أعددنا جزءًا من دار خربة.. في الليل يتثاءب القيد في أرجلها.. وفي النهار ينسكب الضوء في عالمها.. بين القيد والضوء، ولدت ألفة.. كان أول من استشعرها المؤذن.. فقد روى في مجالسه الخاصة، أنها كانت تأتيه في ساحة المسجد بعد أن يفرغ من المصلين.. تجلس بين يديه بخشوع.. يسألها آفاقًا بلا هوية.. تدفع المؤذن إلى الاستعاذة بالله وتلاوة آية الكرسي.. يأخذها النعاس. كطفلة تدس رأسها بين يدي المؤذن.

❀ ❀ ❀

هذا ما كان من تفاصيل البداية.. ثم إن أحدًا لم يذهب به سوء الظن إلى تقدير حالتها.

غاصت في جسد الهم اليومي.. امتطت قسوة الريح القروية.. كان من طقوسها، أن تأكل قطعة كبد نيئة قبل الغروب.. كانت وهي تأكلها تثير انفعالات عديدة.. كنا نراقبها، في البداية فضولًا، ثم شفقة، ولكن الخوف مما آلت إليه كان هو المسيطر على الوجوه.

بعد التهامها الشنيع لقطعة الكبد.. يصيبها الدوار.. تسقط، يتخدر جسدها الثائر.. نحملها إلى بيت المؤذن.. يتلو

عليها آية الكرسي والمعوذات، ثم ينضح وجهها بالماء البارد.. نعود ونحملها إلى الدار الخربة.. وإلى جانبها تبيت إحدى محسنات القرية.

هذا الخدر الوبائي، ينتحر تحت وسوسة الانتقام.. يغمر مساحات الضوء في محيطها، بشكل يوحي بطول الأمد.. لكن شيئًا ما يثور في عالمها الخرافي.. يحرث مسطح التفكير في عقولنا.. والشفرة المبهمة، ظلت حدًا فاصلًا بيننا وبين عالمها المثير.. «آكله الذئب، وأنا آكل كبد الذئب».

في هذه الانكسارات المليئة بالغموض والغرابة، ظهرت مهارة صانعي الحكايات والتأويل القروي.

منهم من أسعفه ماضيه التليد في التأويل أن ينشئ تأويلًا لهذه الشفرة الضيقة في أبعادها الخارجية، الغنية في جوفها الوحشي.. ففسر أن الذي أكله الذئب حبيبها، ولكي يعطي تأويله بعده الموحي بالذكاء، فقد تصور، بل أكد أن هذا الحبيب المأسوف على شبابه قد أكله الذئب في ليلة عرسه.

ومنهم من زعم أن الفقيد ابنها، من غير أن يؤكد!!.

وآخرون ابتدعوا أسلوبًا مغريًا دفعهم إلى سرد أشياء تخدش الحياء العام ولعلنا مع شيء من اليأس، وعدم الاقتناع، ننشد راحة للمحارب في نفوسنا.

يظل ليلها محيطًا صاخبًا.. بقاعه المليء بالخوف والغموض.. يهزها طرب سُفلي.. في عينيها تتحول هياكل الليل إلى نبض أفعواني.. تنقش وشم الأسرار. وموال الليل سم نعق في أدمغتنا.. يثير في أذهاننا الخشية والترقب.. من قاع الظلام يأتي لحن جنائزي يشق صدر الرتابة.. يفيض إحساسها الناري، بالعناد.. ترقص.. تتلوى.. تتكور.. والأعين البوهيمية من حولها.. تأكل الضوء.. تتقيأ المعلوم.. تعشق المجهول.. دائرة من الرؤوس الصدئة.. أصوات تأكل بعضها بعضًا.. تلعق اللهب اللولبي.. تندثر هيبة الليل.. تسقط الدائرة في عدمية الصخب.. ألف رأس توازي رأسًا واحدة.. هي المحور، وهم الأذرع المحيطة.. هي الصوت، وهم الصدى.. هي اندثار العقل، وهم الوهم المفروض.. ملامح دائرة لم تكتمل.. رقصة بدائية، راقصة غجرية، وعالم يركب نعل المسافات البعيدة.. في هذا المحيط تعيش القرية، تمضغ سؤال الحرة.. وعالم التأويل يظل حلًا مؤقتًا، لكل إفرازات الغموض، فليلة كهذه.. أخذت من التأويل بمقدار غرابتها.

❀ ❀ ❀

كان من تفاصيل الليلة الأخيرة.. أنها طلبت قطعة الكبد فلم تجدها.. بكت.. صرخت.. نعت نفسها، وتوعدت الذئب أن تلتهمه في وقت آخر.. نحن كنا نُنصت.. عيوننا تنضح بالدهشة.. وخلف المتاريس عدنا نمارس النوم البليد.. هي.. انطلقت تعدو قطعة غيمية نارية المزاج.. تتعامل مع الأشياء بقسوة.. سوطها الحديدي.. يزأر.. يكسر.. يدمر قانون

القرية.. آخر الحوادث فداحة.. عندما أوقدت أول الفتيل.. ثم امتطت غرامها المسحور، نحو الندوب المستحيلة.. وخلفها تضاريس الولادة.. تحتضن احتمالات النهاية.. وفوق المسافات تمتد الشظايا.. ومئذنة القرية.. تشكو اندثار الليل قبل أوانه.. وصوت كالمدية.. يدخل خاصرة الليل.. «النار.. النار!!».. وتكلس الدخان في الأفواه.. تناثرت الأجساد كالمرايا.. والنار تبوح بالهشيم.. كانت ليلة عمورية الملامح.. محت كبرياء الشمس. ارتعشت تفاصيل الموت.. الأعين الهزيلة، قاومت حمّى التوهج.. سقطت.. تبول الصديد في أفواهها.. وكانت الطعنات تصرخ من تعب الحريق.

❀ ❀ ❀

«وثيقة»

«أكد الراوي أن حوادث تلك الليلة زادت على عشرين حادثة، آخرها الحريق المريع الذي أيقظ القرية والقرى المجاورة، وعُد فيما يعد تأريخًا يفصل بين أحداثٍ سالفة وأخرى لاحقة، وميلاد كئيب لكل مواليد سنة الحريق».

❀ ❀ ❀

أضاف الراوي

إن المرأة عندما عادت إلى القرية.. تذكرت ذلك الضوء الذي ألهب مئذنة القرية.. كانت تراها تسقط، وحصان المسافات يقذف بها.. وأزمنة الاحتضار تولد في عينيها..

روت المرأة تفاصيل كثيرة.. تحدثت عن الخوف الذي حاصرها.. وأسهبت كثيرًا في وصف اليد المضيئة.. وهبوطها المفاجئ فوق متنها، ومسحها اليسير من هامة الرأس حتى مؤخرته ثلاث مرات.. نعم هي تذكر ذلك.. وتؤكد أنه قال.. «لا تخافي أنا الخضر وإلياس!!».

وللحكاية نبض آخر

ولما كان وجه الشمس آية للناظرين.. سبّح باسم ربه الكريم.. مضى.. يطوي قسوة المجد والسلطان. يلف رأسه خوف البداية.. تطاولت غاياته نحو أبعاد خفية.. وجسيمة في فوهة الطريق.. يحمل في جرابه زادًا ليومين.. وثورة بخور في عناء.

في الليلة الأخيرة قبل سفره.. قرأ ابتهالات عديدة.. وتصفّح شيئًا مما ألف أن يقرأه.. وخط في أوراقه البالية، رموزًا عدها كافية للخلاص، ثم كان في هدأة الليل يصغي إلى بوح خفي.. يطلب منه المثول بباب «الحليف».

شكا في وحدته وصب الطريق.. وخوف اللقاء.. وهم العقاب.. يعرف التفاصيل الدقيقة، عن بأس القبائل.. هو بعجزه حاول أن يغير من واقع الأمر.. كان الحكم قاسيًا.. كل الخيارات بعضها أقسى من بعض.. واندثار ذلك الرجل، لم يكن بيده.. وشطط عقل ضعيف. لم يكن في حسبانه.. أشياء كثيرة.. حاول أن يعيد صوغها لمصلحته. ويقرر أنها جعلته يرضى بسوء المنقلب.

في عمق الوادي.. كانت خطواته تأخذ بعدها النهائي..

قدماه تطحنان الحصى.. وصدره يستقبل الخوف والاندهاش، ووجه السماء الغروبي يدنو.. يحيل المكان إلى حيز دخاني.

ورد البئر المطوى بصوان الحجارة.. شرب ثوره المتهالك.. خواره ملأ الفضاء، فعاد الصدى يبث وحشة الخراب.. هو في هذا البعد المقفر.. تعرى من بقايا مجده المأسور.. غار في العمق المائي.. طفا.. صعد.. ثم استلقى فوق مساحة رملية.. نظر بعين الحسرة إلى جرابه الخالي.. أكل الجوع قدرته على المقاومة.. عصب على بطنه بحبل غليظ.. تهاوت قواه. وغاب في نومةٍ كهفية الملامح.

❀ ❀ ❀

ارتكز سيف الضوء في عينيه.. نفض عفونة الخمول من جسده.. حدق صوب الشمال.. هناك تكمن غايته.. اشتهى كثيرًا أن يجد من يحدثه، حتى ثوره، كان ينفر منه.. ضراوة القيظ بذرت في نفسه وجع الكآبة ـ أراد أن يصرخ.. أن يبوح بهمه..

«أيها السفر الذي لا ينتهي.. تكمن الأوجاع في هامتي المسلوخة.. والتحدي الذي ينبجس من ضعفي.. يدفعني للوصول نحو عالم الحليف».

❀ ❀ ❀

الآن، دخل المساء في بداية الحساب.. وهو بهامته المسلوخة.. يقف أمام صخرة ملساء.. أخرج من جيبه أوراقه

البالية.. استحضر من خلالها حليفه.. «يا ملك العوالم الخفية.. يا سمن سمى نفسه «أزُبْ بن أزُبْ».

جاءه صوت مدسوس في العتمة «تقرب إليه!!».

اقتاد ثوره.. صعد على ظهر الصخرة.. نزع خنجره.. أغمده في نحر الثور.. انقطع الخوار في مجرى الدم.. بقي ينظر.. تملكته الدهشة.. صخب يزرع الخوف في البقعة المحيطة.. انشقّت الصخرة.. غار الدم في أخدودها الطفولي.. بانكماش، أقعى أمام الصخرة.. تفجّرت ضوءًا نحاسيًا.. برزت من عمق الفراغ حزمة من الضفائر.. تلونت تحت ضوء القمر.. استجدى من نفسه الثبات.. انتفضت حزمة الضفائر.. رقص في «أذنيه إنشاد رتيب..

رحبي يا أمساعدي

يوم جتك الفوايدي

من بلاد بعايدي

رزق شاق لقاعدي»

ارتحل الرجل في ذاكرة الخوف.. انبعثت من داخله رائحة التأفف.. «بغبائي أرهقت نفسي.. أي رزق أحمله؟!.. أريد رفعتي.. أريد هيبتي المفقودة.. هناك في عوالمي يدبرون..!!.. لا طاقة لي اللحظة على سماع رقص أو نشيد».

وكان من أمر النشيد، بلاء وامتحان، فعل قدر التجاوز يكون القبول، ثم إن الوجه الصخري الأملس تشقق.. ظهرت نتوءاته الحادثة.. ثم ما لبثت أن برقت في عينيه.. تماسك الرجل في صلابة.. أحس بالارتعاش يسري في مفاصله.. هو

يعلم أن ما يحدث مقدمات.. الصوت الأكبر مختبئ في قمقمه.. يرقب انتهاء الطقوس المعهودة من بين ركام التداعيات البائسة.. أنصت إلى المساءلة:

- من تكون؟!
- أك.. أكون.. حليفكم!!
- ثم من؟
- و.. وشيخ شمل الشمول!!
- مفتاحك للولاء؟
- ثور أسود.
- غايتك؟
- البحث عن بقائي.

كف الصوت الغائب عن هديره.. المكان مسكون بالقنوت.. تعبق في أجوائه رائحة البخور.. وكان عليه أن يجتاز التحدي الأخير:

«ذكر في أخبارهم أن للولاء رموزًا من أهمّها، أن ترقص بين يدي القادم جارية حسناء.. تملك جاذبية الإغراء، وحلو الرواية، فإن لدغته حمّى الرغبة، كان من أمره الطرد والتعذيب».

لفحته موجة الإغراء.. أدمت الرغبة قلبه.. جاهد نفسه الأمَّارة بالسوء.. أغمض عينيه.. قطع صلته بالعالم الوردي.. خشع في رحم التحدي.

انفجر فجأة صخب بدائي.. أعقبه بشكل مفاجئ، صمت

كصمت القبور.. أوحت له بالنهاية العظمى.. استعاد من وعيه المسلوب. انفلقت الصخرة. وهج ناري يصفع الملامح.. بدت معالم الكهف السحيق.. وانثالت مقالة.. «أزُبْ بن أزُبْ».

- «أنا ملك العوالم السفلى.. أتيت أقضي واجب الولاية.. فقص علينا من خبرك».

انفرجت أسارير الشيخ.. وراح يروي فيضًا من تفاصيل الحكاية.

❁ ❁ ❁

«ترجل عن دابته.. مد خطواته بتوتر.. تبعته ابنته، في وسط السوق، اعتلى كومة من الحجارة.. انتصب في قامة رمحية، نزع من حزامه شفرة عدنية فضية النصاب، برعشة مغلولة في براثن الغضب» شد جدائل ابنته.. بترها.. نثرها في الفراغ الكئيب.. أسبلت الأعين أجفانها.. تباينت الأصداء بين الجموع.. خرج من هذا العمق البشري من قال: كفى.

صمت ولد في الأفواه.. غطاء سميك غلف رأس الفتاة.. يد أعادت الشفرة إلى موضعها.. صوت فرق الجموع.. «العهد جريح».. نظرات حادة، كانت تكبلني بالخجل..

«السواد.. السواد. السواد».

محكمة السوق تصدر حكمها.. جاء في حيثيات الحكم..

«هذا الرجل المندثر فوق كومة الحجارة.. رضيتم

جواره. فقره تحول إلى غنى.. أنت شيخ قبيلة عنيدة.. قطعتم رباط العهد.. فقد الرجل حريته في الجوار.

وحكمنا في خصلتين:

الأولى: أن تجمع بمفردك خصلات الشعر المتناثرة من جدائل الفتاة، وعند انطفاء الضياء تكون بباب السوق.. تعتذر وتؤكد احترام الغير.

أما الثانية والخيار منفى عنها، فخبرها محفوظ لدينا.

يا سيد الحافية:

كان عليَّ أن أختار الأولى.. نبشت الأرض.. عاندت حدة الأشواك.. حاولت والريح فتّتت قدرتي، وسقط الخيار الأول من حسابي، وأنا هنا، أعلن ضعفي أمام الخيار الأخير، وهذا ما كان من خبري الأليم، يا سيدي.

- أحسنت المثول، وما عليك سوى الإدبار إلى ديارك، وحين يحين قدوم القبائل. يكون للحكاية نبض آخر.

قرع أذني صوت عنيف..

- أغمض عينيك.. أغمضتهما.
- افتح عينيك.. فتحتهما.

تراكضت الدهشة في عيني.. أنا الآن على مشارف القبيلة.. وذلك الحلم المزروع في ذاكرتي.. وذلك المجد المتطاول في حياتي. وذلك.. ما أقسى المقالة.. وزمن الفجيعة يولد في المساحات الخاوية.. والتاريخ القبلي يبكي في مدخل العشيرة. وبصمت الهزيمة تئن الحجارة، وقسوة القبائل.. تمجد الدمار، في النبض والسكون.

بعين تشرب السواد. حدقت إلى وجه الشمال.. والأفق غيمة سوداء تدنو.. أركض.. الخوف في داخلي خناجر.. أهرب. أشرب الدخان.. أسقط.. أقاوم السقوط.. يهدني الإعياء ثم في القيعان أهوي!!

الرواية الأولى لحادثة الحصن

اختناق

لا يدرون من أين بدأ الداء؟.. غير أنهم يذكرون كيف بدأت الرائحة تغير لون الحياة.. كل الطرقات والميادين والحقول والزوايا وحتى أغلب الدور الفقيرة.. كل الأنوف أقعت في دُبر الرائحة.. ظلوا فترةً يتساءلون.. يتوعّدون.. من حمل الوباء؟!.. خمَّنوا.. شكوا.. ولحظة بعد أخرى يزداد صهيل الوسواس في صدورهم.

كانت الرائحة في يومها الثالث.. صباح رأوا حرس الحصن يهزّون وجدان القرية بسياطهم.. ارتفع نبض الخوف.. سيطر إيقاع ثلاثي، يمزق بال القرية.. هناك جثة اقتلعوها من تحت أكوام الذباب.. هناك رائحة خانقة.. وقسوة مدمرة.. ونسيت القرية في يومها الرابع لون الأشياء وطعم الحياة.

تشريح

«1»

داخل قبو قميء.. يهرب منه الضوء والإحساس.. سقط بفعل دفعة قوية.. تحسس موقعه.. أدرك في الحال أنه تحت

أقدام رجل الحصن.. لم يتح له الصوت أن يوسع دائرة التأويل والتفسير.

- مهنتك؟!

يُصر داخل نفسه أن يؤول غرابة الموقف.. ويؤكد أن بداية الحوار مناورة خبيثة.. «ماذا يريد رجل الحصن بمهنتي الرخيصة؟!».. اشتعل الصوت في وجهه مرة أخرى.. خرجت من جوفه خائفة.

- أصنع المشبِّك.
- تاريخ المهنة؟
- ورثتها عن جدي.
- تصر على تسويقها في قريتنا. لماذا؟!

أدخله هذا السؤال في دوامة مزمنة.. جده أوصاه أن يكتم أمرًا كهذا، خوفًا من.. في الحقيقة هو يجهل السبب.. رغم أن الأمر يبدو عاديًا.. لكنها وصية، وهو يحترم الوصية، ثم إنه من ناحية أخرى يستطيع أن يبيع نسبة كبيرة مما يصنع في قرية الحصن، لذلك فهو يتفاءل، ويبدو أن وصية جده تنطلق من هذا المعنى، لكن اليقين الذي يتوسد قلبه.. لم يعد له أثر الآن في حضرة السؤال.. كره في حياته أشياء كثيرة، والمفردات التي تبدأ بكيف، ولماذا، ومتى، ظلت عامل هدم للهدوء في داخله، تصورها قيدًا ينتهك حرية الحركة.. أحس بوقاحة التساؤل.. مأزقه آخذ في التضخم.. عليه أن يملأ الفراغ الكئيب:

- أيها الرجل المعظم!!

كان من أمري أن أخطب ود البلاد، ومن أحببتها نكحت الإقامة بها، وكان أن فزت بود قرية الحصن وسوقها.

- أنت متهم.

نفرت في داخله أوردة الغضب.. دفعته المسألة إلى طرق تنتهي من حيث بدأت.. نقطة الارتكاز تحت قدميه ترتعش.. هذا التصور الرملي ينثال في قاع وجدانه.. هو لا يصدق، لذلك أفضى به الأمر إلى معالجة الموقف برؤية ذاتية، قد تريحه، وقد تجعله يعيد النظر في تاريخ مهنته.. بدأ من جده ومرورًا بأبيه حتى تاريخ الصفعة الموجعة.. هو يذكر أن أباه قال له ابحث عن مهنة غير هذه المهنة الصمغية ـ هكذا كان ينعتها ـ ولأنه كان صغيرًا، وإصرار جده على تأصيل عراقة المهنة، وأيضًا لا ينكر الآن أن راحة ترتمي في ذاته، هذا الخط التصاعدي أوجد لديه أسبابًا مقنعة لمزاولتها. ثم إن هذه المهنة أنعشته كثيرًا في صغره، وظلت تربطه بتاريخ أكثر لذة.. بتاريخ الصبايا، وتلك القطعة السحرية التي يسيل لها اللعاب.. يجعله يتعاطى لذة العشق في كل القرى المتناثرة.

استحضر ذاته من هذا البعد التاريخي.. كبرت في رأسه فكرة الاتهام، لكنه يتساءل.. لماذا هو متهم؟! هل الاتهام يخص مهنته؟! هذه السياط المحرقة، تلسع قوامه من الداخل.. قد يكون موضوع المهنة مدخلًا لقضية الاتهام من المؤكد أن الوصول إلى قناعة لابد أن يمر بمنطق سليم.. «تبًا لهذا الدوران المنتن».. لا.. الأمر لا يتعلق بدوران منتن أو خلافه، من قبل اتهم بالاحتكار، واليوم يأتي التساؤل عنها بشكل حاد.. لا شك أنه في مأزق.

- بماذا تفسر أمر الرائحة؟

ياللسخرية.. كل الأيادي البيضاء التي قدمها لهم.. أبدلوها له بسياط تأكل تاريخ الصبر الذي لبسه قبل أن يلبسه.. ثم ماذا بعد؟! يسألونه عن داء الرائحة.. هو جزء من كل.. إذن لماذا يحاكمونه بمفرده.. في الأصل تأذى من هذا الفعل المشين.. لكنه لا يملك أمور الناس الخاصة.. كانوا هم أقدر على درء الخطر.. لكنه سمع قبل المجيء إلى القبو أن كل الباعة قد وقفوا موقفه.. تمنى أن يعلم ما صاروا إليه.. بقدر الفضول الذي يدفعه إلى اكتشاف مصيرهم.. ظل خائفًا في هذا الموقف الاستفزازي.. تضيق نفسه.. يتصبب عرقه.. يرتعش.. تسكنه حمى الاضطهاد.. قرر أن يصرخ.. من الشهود.. كم تمنى أن يجد من يزكيه!!.. حتمًا لو علم الآخرون بانتكاسته المخزية.. تبًا لهذا التخمين المرهق.. هم خائفون.. حائرون في أمر الرائحة.. حتى هو.. انتابته التساؤلات.. خمن.. شك.. وسوس.. مارس هذه الأفعال كغيره.. حريته تقف عند هذا الحد.. لكن حريته اليوم صودرت.. فقد حرية الهواء.. حرية الماء.. حرية الطير.. حرية الأشياء الجميلة في هذا الكون.. حتى حرية الرائحة التي فرضت وجودها برغم الرفض المتزايد.. هو في هذه اللحظة بحاجة إلى حرية الكلام.. حرية التفكير.. استاء رأسه من الضربات المتوالية.. لكنه لا يعرف.. وهو متألم لعدم المعرفة.. وإلى أن يعرف.. سيقول:

- لا أعرف..!!

قال لسان المحقق:

- سنقرأ عليك تقريرنا:

«اكتشف حكيمنا بعد معاينة سلعتك المبيعة من أسبوع مضى وحتى تاريخ التصادم الأزلي بين الليل والنهار من يوم أمس.. أن مصدر الرائحة نتج من تسمّم أصاب البطون.. تنفس من أجسادهم تارة.. وتارة أطاح الأجساد في دائرة العدم.. وفي الحالتين كانت الرائحة هي جرس إنذار، فكان البحث والتقصي.. وكانت الحصيلة عشرين حالة مرضية وخمس جثث تنتظر الدفن».

«2»

الاتهام واضح وصريح.. وصمته إدانة أخرى، لكنه أظهر نوعًا من السياحة في ذاكرته.. عاود التفكير في خطوات صناعته للمشبك.. هو لا يصدق أنه ارتكب أي خطأ مهني.. المسألة لم تعد مسألة اتهام وعفوية.. غدت الأمور تهدد حياته.. هم يريدون تصفيته.. لكنه لا يحمل عداوة مطلقة.. سوى عداوات بائسة مع بعض الزبائن.. هذا أمر يعرفه رجل الحصن.. ما يحدث له أبعاد ملتوية.. لعل في الأمر مكيدة.. في هذه الحالة ينقصه الدليل، وبدون ذلك يبدو الأمر هذرًا سخيفًا.. بوصلة التفكير تصلبت، وأوشكت على الانهيار.

أعادته لسعة السوط إلى جور الحضور.. لابد من قرائن أخرى.. لعل رأي الشهود أقصر الطرق إلى فرض الحقيقة.. تعالى صوت رجل الحصن:

- أحضروها.

أقبلت العجوز.. وقفت شاحبة كبوم.. هذه إذن!! ماذا

يمكن أن تقول؟!.. هل تقدر أن تحمل وزرًا كهذا؟!.. رصدت الأعين ارتعاشة شفتيها.. استأذن المحقق:

- قررنا إعفاءها من الكلام لحالتها الصحية، وسنورد شهادتها بالنص.. تقول: «ذات مساء أدركت رجلًا يتغوط في مدخل القرية، ولأن وضعه كان مخجلًا فقد توسل أن أغفر زلَّته.. لكن والحالة هذه، فقد جئت لأسجل أول حالة مريبة».

أظهر المحقق نوعًا من الفرح.. فريسته الآن تأكل نفسها.. ليكمل أمرًا بدأه.. أمر بدخول الرجل الذي ورد في شهادة العجوز.. دخل رجل رمى خلف ظهره أربعين سنة تقريبًا.. يسنده حارس ضخم الجثة.

- كيف تفسر ما ورد في شهادة العجوز؟.

تحامل الرجل على نفسه، وأسهب:

- «لم تكن العجوز لتعلم بي.. غير أن الرائحة التي خنقتني فضحت سري، وفوجئت بعصا العجوز تقرع ظهري.. لم أتغوط.. الأمر لم يتجاوز الرائحة. وعمري لم أشم رائحة كريهة مثلها، سواء من ذاتي أو من ذوات الآخرين.. يئست من جدوى التغوط.. ارتديت سروالي، وطلبت من العجوز أن يكون الأمر طي الكتمان، غير أنني ذلك المساء أحدثت في المنزل حركة غير عادية، وانتقلت من الخجل الذي كان يكسو وجهي أول الأمر، إلى الهرب من الرائحة التي ظلت تلازمني.. شربت من مساحيق الأعشاب مقدارًا مخيفًا.. صعدت،

وهبطت، وتمرغت.. ثم أغمي عليَّ، ولم أفق إلا بعد ثلاثة أيام ذُكرت لي فيما بعد أنها كانت مضنية.

وبدأت أعيد ترتيب الأمور بعد أن تصالحت مع الرائحة بشكل نسبي.. فكرت ماذا أكلت، أين ذهبت، ماذا فعلت.. وجدت أنني عصر ذلك اليوم الذي باشرتني فيه الرائحة كنت قد اشتريت رطلًا من حلوى المشبك من عند هذا المتهم الماثل أمام عدالتكم».

تلك شهادة العجوز.. وهذه رواية الرجل تؤيدها صراحة.. وها هو المحقق يبدو فرحًا، ورجل الحصن مغتاظًا من اختفاء الأمر كل هذه المدة.. عشرة أيام يؤكد أنها كافية لزعزعة هيبته.. والآن وقد أُحكمت حلقه الرواية.. كيف يدافع عن نفسه؟.. لم يعط فرصة أكيدة للدفاع، كل ما هنالك أسئلة حادة، تسفر عن إجابات مندهشة.

«3»

استعرض الوجوه.. وجد وجهًا يألف رؤيته.. أرسل عينيه.. قد يتطلب الموقف شفاعة رجل مثله، ولو من باب التزكية.. وقف إمام المسجد.. خطوة كان ينتظرها.. أسعدته بقدر دهشة الآخرين لها. بشكل خطابي كعادته قال:

«الظلم ظلمات، وأمر الرائحة قد جرى، لكن وجه الحق لا يضيع.. أعيدوا النظر مرة أخرى فربما..».

رجل الحصن يطلب منه الجلوس.. أسف على انتكاسة

هذه الخطوة.. رغم كونها جوفاء، لكنه بحاجة إلى قطرة وسط صحراء الاندباح ود لو يرى الموقف بصورة أخرى.. هو متهم.. بل أصبح في نظرهم مجرمًا، وبات صدور الحكم مسألة وقت.. فكر في إعادة صوغ الأحداث.. محاولة أخيرة يبذلها..لا تعنيه تسمية ما هو مقدم عليه.. تحدٍّ.. إنقاذ.. مجازفة.. انتحار.. يريد أن تكون له فرصة حقيقية فقط.. إلى الآن وهو أرجوحة يلعبون بها.. اتهموه.. ضربوه.. حاصروه.. أهملوا إنسانيته.. لم يمنحوه حق الدفاع.. الأمر كان جاهزًا.. وعليه الآن أن يقول كلمته.. طلب الحديث:

- لدي ما أقوله قبل صدور حكمكم، أريد أن أختار نهايتي بنفسي!!

اندهشوا.. تابع الحديث:

«إرادة تدعو للدهشة؟!.. لكنها إرادة واعية.. يحق لك أيها الرجل المعظم أن تدفعني إلى فضاء القرية عصر غدٍ، أقف على خط واحد بين اثنين من أجود الأحصنة.. وفارسين من أمهر الفرسان، وسيفين بتارين، وليكن فضاء القضية هو آخر المدى.. ننطلق بإشارة منك، فإن لحقني فرسانك كان لهم رأسي، وإن تجاوزت المدى قبل أن يلحقا بي، أظفر بالعفو من قبلكم».

وجه آخر

بعد زوال شمس اليوم التالي.. تجلى فضول الناس.. اكتملت الأعين بنهم فظيع.. تعرت الأشياء.. اشتعلت في الأنفس مرارة دفينة.. تنفست فرحًا خفيًا، واحتدمت بداخلها

مواقف عجينية. وراحوا يؤكدون أن ما أقدم عليه «ابن طويلة» ـ هكذا سخروا من طوله الخرافي ـ امتحان مرير، كان يمكن أن ينال عقابًا أيسر.

كان التحدي قد ألغى كثيرًا من هيمنة الرائحة.. في الليلة الفائتة يئس النوم من عيون الساهرين، وبرز التحدي عنصر حيرة.. أقلقهم أمر بائع المشبِّك كثيرًا.. هل يشفقون عليه؟! هل يمقتونه؟! هل يعجبون به؟! لم يعد يعنيهم أمر العقوبة في شيء.. ودوا لو يغوصون في تكوينه الداخلي.. «ياللبلادة.. تكوين صمغي كبضاعته».

على امتداد المساء الحائر.. تباينت ردود الفعل.. ليس في الحصن فحسب، بل في السوق، والحقول، والمسجد، حتى في القرى الأخرى.. ففي الحصن، أشرف رجل الحصن بنفسه على انتقاء فارسين من فرسانه الذين يعتد بهم، وقلدهما أوسمة الانتصار سلفًا.. باختصار عند رجال الحصن الأمر محاولة للخروج من دائرة الرائحة.

وفي السوق، فسر القوم وأوَّلوا حالة «ابن طويلة» وقنعوا في نهاية المطاف بانتظار مرير.

وفي المسجد، وبعد صلاة العشاء، احتشد الناس.. وقف الإمام.. تحدث:

- «لن أطيل، لا عجزًا بل إدراكًا لعدم جدوى الكلام، فمن رائحة قاتلة إلى حيرة بغيضة.. لا أدري هل نشفق على «ابن طويلة»؟.. هذا الكائن الغريب، من قبل أسعدنا كثيرًا، لكنه تورط في قضية محيرة، وأحدث أمر التحدي

ـ المتفق عليه صراحة ـ بين رجل الحصن وابن طويلة، بلبلة في تقدير طقس العواقب».

في فضاء القرية.. ظهرت الخيل الصافنات تحمل رجل الحصن وحاشيته.. ترجلوا.. صعد رجل الحصن شرفة أعدت لذلك.. في الركن الغربي من الفضاء.. وقف ابن طويلة يباهي بطوله الجموع المحتشدة.. استأذن في خلع ثوبه.. عصب على بطنه بحزام جلدي عريض.. هوى إلى الأرض.. مرّغ خديه.. قبض حفنة تراب.. استنشقها.. أطلقها في الفراغ.. ارتكز على خط المنافسة.. حدق إلى الجموع الصامتة.. حدق إلى المدى البعيد.. حدق إلى الفارسين عن يمينه وشماله. إلى الحصانين.. إلى السيفين.. مد ذراعيه جانبًا.. انطلقت علامة البدء.. صفع بكفيه ناصيتين جامحتين.. ارتعد الحصانان، وامتزج الغبار ومحاولة التعويض والضجيج الحائر.. وكان قد أعطى ساقيه للمدى الجديد!!

قالوا عن النعمي

- إن النعمي إذا كان قد نجح إلى حد كبير في استخدام أسلوب الاستبطان في تعريته للإنسان من الداخل للكشف عن أزمته مع النقلة الحضارية الحديثة، فإن التساؤل يكمن في مدى تمكنه من تجاوز هذا التكنيك من نطاق هذه القضية التي أوقف عليها مجموعته القصصية الأولى.. زمن العشق الصاخب؟

سعيد السريحي

- النعمي غاص في نخاع الحقبة الزمنية، واستل منها مواقف مضيئة كانت قادرة على رج القارئ.

د. محمد صالح الشنطي

- لغة حسن النعمي لغة مستعصية، مدهشة، وغريبة.

خالد المحاميد

- كاتب موهوب حقًا، متميز بغير شك بأنفاسه الشاعرة الخاصة على صعيد اللغة، وإيحاءاتها هادئة، صاخبة بين يدي القارئ حين يحتدم الموقف، وعلى صعيد اختياره

الذكي للإطار الفني في توازن حذر بين خطرين.. سقوط في التعمية والإغراب.. أو سقوط في تقريرية تقيده عند حدود الحكي كأساس للقصة والرواية.

جريدة الرياض

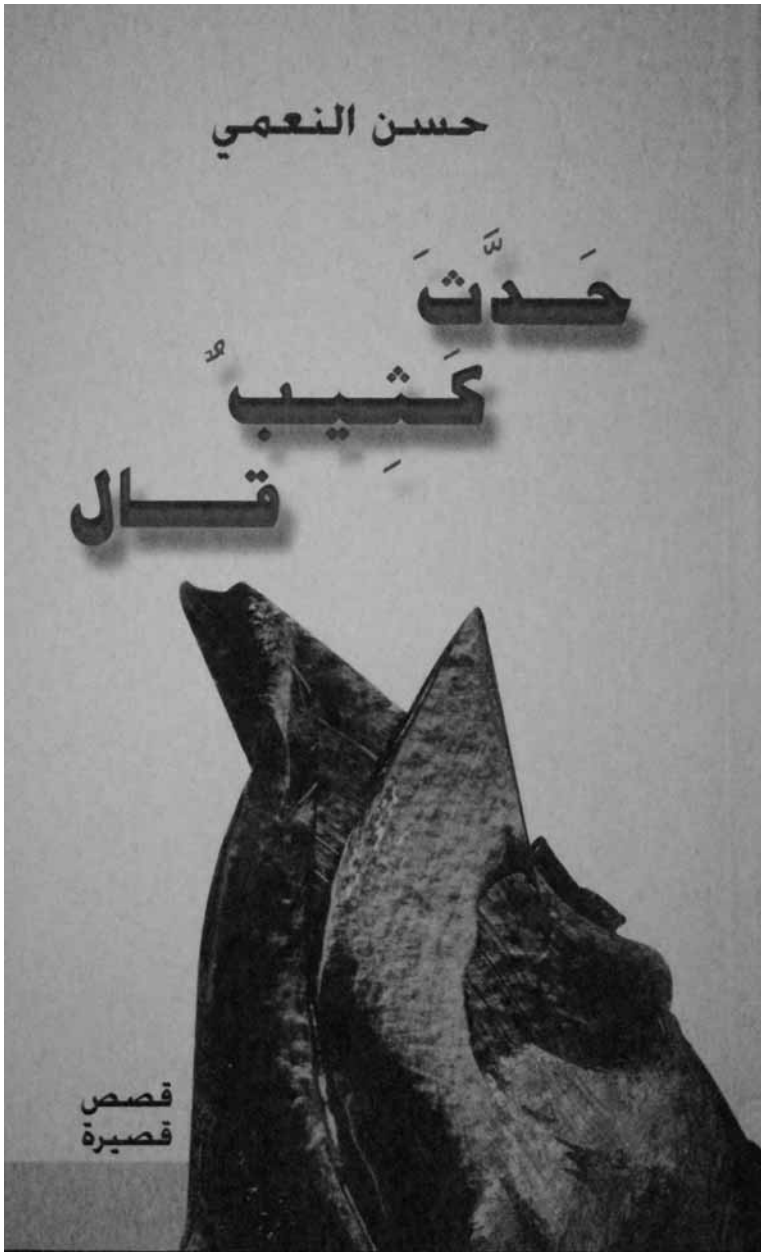
حسن النعمي
حَدَّثَ
كَثِيبٌ
قال
قصص
قصيرة

المحتويات

حَدَثَ كثِيبٌ قال

إهـــــداء 145
هوامش في سيرة ليلى 147
حولية الفجر الخامس 151
الجنوبي 157
رحيل الأستاذ بخيت 161
سيِّد الأبواب 165
حَدَّث كَثِيبٌ قال 169
حالة إغماء 175
رهوان وبائع الجرائد 181
بقايا صبر 187
مدى الحلم 193
الوجبة الثالثة 197
حدَّثني كَثيبٌ قال 201

إهـــــــــداء

إلى عبدالعزيز السبيل

حين لا أجد الكلام..

وحين لا يَحْسُنُ الصمت..

أقول..

أشكرك شكر العارف بفضلك، وكفى.

ها أنا أسم الأسماء وجهًا نابتًا كالصبح

ها أنا أنقش الأفعال سهمًا صاهلًا كالضوء

ها أنا أحمل نبضها في بعض صوتي

وأضفر في دمعي وجع الرجال

فلا شيء بعد الآن يسقط في فراغ

حسن

هوامش في سيرة ليلى

كان للقرية صباح آخر، بكى حزنًا على ليلى. وما أدراك ما ليلى!! قالوا في سيرتها ما لم تقله الأقمار. قالوا لو أنها ماتت لكن البكاء عليها مقبول. إذن أين هي؟! وما بدا سؤالًا مهمًا تهاوى في مسارب الحياة رويدًا رويدًا.

كان قيس واحدًا من عشاقها، من عشاق ليلى، وكان له من الرغبة في وصالها ما جعله يهيم على وجهه بحثًا عنها، عن تاريخها. في يوم ما، صادروا منه ليلاه، أسروها حتى غدت حلمًا ذابلًا. وقف قيس يتأمل أطراف الصحراء. يحدق إلى التقاء السماء والأرض. وتساءل:

- تُرى في أي فاصلة من الأرض تكمن ليلى؟

لم يقل أحد بجنونه، ولكنهم عدوه غريب الأطوار. سألوه:

- أين ليلاك؟

رد بازدراء وغضب:

- بل ليلاكم؛ ليلى الأولين والآخرين.

وخاطبهم قيس في مناسبة أخرى:

- ألا تشعرون بفقدها؟

قالوا:

- نشعر بذلك، ولكننا تعوّدنا غيابها. كما عاشت في زمن مضى، هي الآن رهن التاريخ.

كانت ليلى فضاءً، كانت سماءً، بل كانت أمومة. كانت خيرًا، بشَّر به الأنبياء وقدَّسه المحتاجون.. ليلى التي عاشت حلمًا زاهيًا، ذبلت. تبارى الناس في ذبحها. حتى الذين بكوها، غطوا سوءاتهم خشية بطش ظالم أو سخرية سفيه. وغدا تاريخ ليلى تاريخًا سريًا يروى في وسوسة الصدور وأقبية الظلام.

قيس وحده شد رحاله بحثًا عنها، عن ليلى، عمَّا تبقى من تاريخها. واعتبر يوم رحيله تاريخًا في ذاته. ابتسم ووعد الناس أن يعثر على ليلى. وكان يحس نبضها في قلبه، في ساعديه، في قوة جبارة، شجاعة تتملكه عندما يستحضرها.

في موطئ ما من الأرض، تطاولت قامته؟ وقف أمام بناء ضخم تجمهر حوله خلق كثير. عُدَّ قيس أسطورة بشرية. كان مطلبه يسيرًا أو هكذا بدا له. وعندما أُذن له بالحديث، تجلى حبه في سؤاله عن ليلى. سأله رجل عجوز:

- ومن أنت حتى تبحث عنها؟!

حزن على سؤال كهذا. قال:

- إنها الرغبة الوحيدة في بقائي، بها عشت، وبأملها في الرجوع سأعيش. إنها شيء أنقى من وجه الأرض.

قال العجوز بأسى:

- ليتني أعرف أين هي؟

وفي طريق آخر تبدى السؤال كهذيان في خاطره. كان يسأل المارة:

- هل رأيتم ليلى؟

خاف من بذرة يأس تموضعت في قبلة الصدر منه. هز رأسه كثمل يريد أن يستجمع قواه. قال: إن لم تكن ليلى كائنًا بيننا، فهل تكون كائنًا غيبيًا. وخدرته غرابة الاستنتاج. ولكنها الحقيقة في البحث عن ليلى، فلتكن مشيئة الله. هكذا ردد وهو يطرق باب الجان. قيل له:

- من أنت؟
- أنا مؤمن بوجود ليلى؟
- وماذا يعنينا نحن؟
- أنتم أقوياء وذو بأس.
- لكل ليلاه، ومن ضيعها فهو شقي. ابحثوا عنها.

وبدأ اليأس يتسلل إلى وجدانه. وعندما همَّ بالانصراف، استوقفه صوت خشن النبرات، طالبًا منه البقاء حتى الليل. وقال قيس في نفسه: سأنتظر ليلة أخرى. ولما حان الليل اقتيد إلى غربة مظلمة، وكان فيها كُوَّة صغيرة بدا من خلالها نور خافت بدد بعضًا من وحشته. اقترب من تلك الكوة. نظر بوجل وترقب. ماذا عساه أن يرى؟ واتسعت دهشته إلى أقصى مدى. عد ما يراه كرامة في عصر بلا كرامات. إنه يراها. يرى ليلى ضائعة ومشردة ومقموعة بين الناس. رآها جسدًا ينتفض، ينبض

بحياة واهية. حزن لمنظر كهذا. ورغم أنها كسيحة، فقد عد وجودها شيئًا غاليًا.

وتساءل: هل كانت ليلى في يوم ما سوية الأقدام؟ وسواء كانت سوية الأقدام فيما مضى أو لا، فما يهم هو حاضرها، هكذا حسم المسألة.

ومن خلال تلك الكُوَّة رأى ما لم يره في حياته. رأى الناس يبكون حال ليلى. وكثر الذين أيقنوا بوجودها. وكبر الإيمان بوجود ليلى حتى كانت سابقة ذات أبعاد غير معروفة. ودهش قيس لهذا التحول في عشق ليلى. هل كان يحلم؟ ربما هي حالة استفاقة في قيلولة حارة. ولم يعد وحده الهائم في رحاب ليلى. وليلى التي كانت هواه، أضحت هاجس عشق في دماء الآخرين. واستشرف الناس قدومها ربما من مكان قريب أو بعيد. لا يهم، فحضورها كان طاغيًا. حتى الذين لا يحبون ليلى أحسوا بوجودها، بخطر داهم يفضح سرهم. فجأة انتفض قيس. صرخ حتى ضج المكان. ففي ركن ما من الأرض رأى أنَّ الطغاة يتآمرون على قتل ما تبقى من ليلى.

1995

حولية الفجر الخامس

مَخَال

في زمن يشرب ثمالة الأحلام، تولد التحديات، تغدو وجعًا يركض في الأحداق، وقيظ الأجواء يُفرِّخ رغبات بائسة. هو ظلَّ يستحم ببقايا رجاء. يفترش أمنية بعرض الضياء، وتلك الغيمة الهاربة، أضحت همًا يعاشره. من أجلها ظلَّ يمارس عادة غريبة، يصعد أعلى جبل في القرية، حتى كان صعوده أمرًا واجب التنفيذ. في قمة الجبل، يغدو محيط الأرض في قبضته، والغيمة تعاود الرقص ما بين عينيه وقبة السماء. كل طموحاته، أن يجهض حيويتها. أن يغرس أظفاره في أحشائها. أن يشاطرها نزفها الطفولي. كان في كل مرة يصعد، يرضعها في صدره لحنًا معجونًا بتراب الأرض.

المدى الأنثوي يحرن. يشرد بين قطبين من الضجر. تتشكل في المخبوء عوالم أخرى. كان في طفولته يشكل من تراب الأرض بيوتًا. وفي شبابه كان يُميِّز عبير الأرض. وفي آنه صار يشرب عشق الأرض. هو الآن يتربّع على بوابة الأرض، في فضائها الخصيب تشكل عمره، ووارى في ثراها بويضة العشق. يريد منها أن تبادله البوح والحياة، لكنه لا ينسى أن له

مع الغيمة أسفارًا وابتهالات طويلة. تتلوَّن كالمواسم، أرقًا، هاجس فناء. وهذا الموسم تقوَّس في رحم الجفاف. أرعبه صراخ الحصى، وثورة الطين... وغسله هذيان اللحظة.

بعد فترة، غدا صعوده قليلًا، ومناجاته المغيمة تخبو، وبداخله تنبت عينان لليأس. كبر اليأس. صار للعينين رأس يحويهما. فكر أن يلغي اهتمامه. تذكر الأفواه والعهد والعشق السرمدي. لا. المسألة لم تعد تعنيه بمفرده. ثم إن هنالك عهدًا وهوى تمازجا في مضغة الحياة.

اندحر ذل اليأس. عاد مبتهجًا كقائد، والصبر يتثنى بعينيه، يمنحه طريقًا من الضوء والإصرار. قالت له زوجته لحظة تعامد الشمس:

- تعبتَ؟
- من أي شيء؟
- من الأرض.
- أرقب أجلها.

قوَّس مجال الرؤية من حوله. استكان في حنجرة اللوَّعة. حدَّث نفسه كنائم. هو الآن يدخل خارطة من نعيم. ركض بلا قدمين. سقط في حوض مليء بالضجيج. تأوه بين الأسف والاندهاش. انتعل صرخة من العالم الخارجي. أعطى لعينيه حرية التحديق. لامس وجه الفرح. تعرى تحت انثيال الغيمة. رقص لامتزاج السماء بالأرض. رقص الأطفال والنساء والشيوخ، وكان يرسم فوق نهر القلب عناق الأرض والغيمة.

سيلُ البدء

ها أنت يا نابت، وامتداد الفرح في عينيك، حبل مجدول من معاناة الأيام، أبوك من قبل كان ضوءًا من الفرح. يُذكر أنَّ ولادتك بعد أن أكل الحصى ذاته، وكانت الأرض تحبل بالجوع، وتلد الظمأ، ونبتَ أنت في آخر الزمان. تشرنقت داخل غيمة. لم يصدِّق أبوك أنَّ وفادتك كانت في يوم مطير، حتى أن الصابرين حاقوا من لون الفرح الناري في عيني أبيك. تفاءلوا بك خيرًا، واتفقوا على أن تكون (نابتًا). وها أنت تقف بارتياح أمام أرضك. تركض فوق صدرها. تعانق ثراها، تسمدها، تحرثها، تمشّط ضفائرها، تبذر أحشاءها أملًا، ويرتحل بداخلك شوق، وتأخذك الأحلام إلى منحى الانتظار.

كُمون

الفجر الخامس مرَّ على استرخاء البذور في الرحم الطينية. تساءل عن حياة الداخل، لونها، صخبها، عنفها، كفاحها. وكان القلق يعبث بهدوئه. الفجر الخامس؟ البذور هامدة؟ حساباته ناقصة، الفجر الرابع، ربما.. لا، هو يعقل. حدث كهذا لا يعرف التيه. فليصبر إذن. فعل تخديري مارسه ككل التحايا الصباحية. لا يعرف على وجه الدقَّة ماذا يفعل؟ فجرٌ أو فجران ويأتي الفرح. فرش أمنية أخرى بداخله، ووطَّن نفسه على منادمة الانتظار.

الفجر العاشر. لا يمكن، ارتعش الأسى في عينيه. امتطى مدارات الوجع. ركض حتى تمثل الوسط. أنشب أظفاره في

خاصرة الأرض. حفر، قفز التراب خلف ظهره، جنون الدهشة أكل لبه. لم يُصدق. حفر في أماكن عديدة. همجية اللوحة تتكرر. دود ينهش باطن الأرض. ومن اللحظة كان الدود ينهش قلبه.

قال العارفون

قال العارفون إن ما حدث لا عهد لهم به، لكنَّ أكبر معمر في القرية ذكر أنها حالة فريدة، وإن كان للحالة وجه آخر في زمن فائت، غير أن الدود في ذلك الزمن شارك الناس في مأكلهم ومشربهم.

أوصى العارفون بقلب رداء الأرض. قلب نابت رداء الأرض. كان الوقت ظهرًا، وجبين الشمس يتفصد عرقًا، وطعم المرارة يسلب منه الفرح. لم يشأ أن يبتهج. عانق ذراعيه، ومضى بانتظار موعد البذر الجديد. في يوم البذر، بسمل، قرأ كل ما حفظ من الآيات والأدعية، ولما كان الفجر الثالث. صرخ، ارتفع صوته، انخفض، ازداد غموضًا. ألجمته غيبوبة جارحة. الخنجر حرق صوابه. بكى. كانت دموعه الملحيَّة توازي الملح المنثور على وجه الأرض. تمنى بتر اليد المغلولة في البغضاء. حمل قدميه وعاد إلى أهله. انكسر في داخله قوس الرغبة. في البيت سأله طفله بفرح:

- نبت الزرع يا أبي؟

بكى الصبر في عينيه، وأغمد شهقة حادة في صدره.

بعد أن استدار القمر، كان الزرع يشكو كساحًا. خشي نابت أن يعيد فلح أرضه. أيقن أن الموسم قد انتعل نعلين من

ريح ومضى. استعاد من محفوظاته ثنائية الكنز والقناعة. في ظل هذا الاختيار القسري، وجد من يحاصره، من يقول له: «يعني أرضك». صدره محروث بالمعاناة، ومحيطه يتلذذ باحتساء كأس المساواة. بالأمس يد أجهضت فرحه، واليوم يد تريد مص دمه. وفغر فاه على سؤال متضخم:

- كيف يبيع الإنسان قبره؟!

حفظ من سيرة أجداده سيرة جده لأبيه: «يذكر في زمن الحرب وكان الموسم في تمامه، أن الغزاة استبدوا بالناس، وضيّقوا على القوم حد الهلاك. وكانت الغايات أحقر من أصحابها؛ وإذ بجده يشتري قبره بلقمة عيشه».

من وقت إلى آخر، كان يرصد نمو زرعه. بطيء كما الدابة العرجاء. قلَّبَ وجهه في سماء الرجاء. من زمن نسي شكل الفرح. الساعة أنس بفرح ضئيل. ها هي الغيمة تعاود حنينها، مشت بخفين من ندى على جبين البلاد. أزهر في دربه أمل طفولي. بعين أرهقها رمد الكآبة، راقب تطاول سيقان الذرة، اعتدلت الأمور بشكل نسبي. ولما رأى السنابل تشق بكارة الخجل، لاح له في الأفق مصير قاتم. دنا هذا التضخم العدائي. كان الطير في سمائه يشكل بقعًا سرطانية. جند نفسه وزوجته وأولاده. أوقد النار. نصب أشكالًا آدمية. علق في وجه الريح صفائحه، وراح صوتها يجلد الفضاء. لكن شوكة العداء بينهما تطاولت. ضحك الإرهاق من شكل التحدي. ومع كل هذا الخصام الموسمي، تسنبلت بداخله الأماني، ووعد نفسه بمحصول لا بأس به.

صريم

الفجر الأخير تخنجر في عيون المتعبين. انقلبت المضاجع في الوجوه الحالمة. بَرقَ الخوف في الأحداق، واضطربت في الأرض رائحة الخراب. وكان نابت يمارس التحديق في المدى السمائي. بصره ينقلب إليه مذعورًا. الساعة سرق الجراد من الشمس عيونه. طوى الطريق، وفي إثره أهله، وكانت الأقدام تسبق ذاتها. فوق الأبعاد الترابية، كان الجراد يبيض المأساة بأشكال خرافية. يقذف سُمًا، وجعًا هستيريًا، ينهض جلد الرغبة في الأعماق. ونابت أول الداخلين في دائرة المصير. الأيدي تطوي ما تجد. قبضة بها جراد مطحون بالقهر، وأخرى بها سنابل ذابلة. حاول أن يضيق دائرة الفناء. تحرك بآلية. نحو المجهول قفز. بلون التراب فرشت لونها. يده اليسرى تقترب. هي تفغر فاها. يزيد اقترابًا. يسيل لعابها. كما الكابوس أحس بسخونة مفاجئة. أشعل نظرة حادة. حية تمتص دمه! في داخله قرر، الوقت غير الوقت. لا مجال للمساومة. البحث عن سلام؛ مشروع رديء. لابد من فعل قوي. أخرج شفرته. هوى بها على إصبعه. بترها. نزفت دمًا بلون التعب. وكانت عينا نابت تشربان دمه، والدم يورق. يمتد كنهر أزلي صاخب، يضيء سماء الصدر بضوء من رجاء. وفي القلب من أرضه نبت، تسبل واقفًا في يده اليسرى إصبع معلقة، وفي قبضته اليمنى حفنة من حبوب ناضجة.

1985

الجنوبي

البدء كان اشتهاءً، ولكنهم سلبوا الأرض ذات المواسم. وكان بداخلي أرض، وتحت أرض أرض، وفوق الأرض أرض، وقرب الأرض أرض، وفي الأرض أرض، وبين الأرض أرض، و...

ولما سألتهم:

- لماذا الأرض ذات المواسم؟!

أجاب الذي أعرف سحنته، وقسوته، وغلظته، وسطوته، وهيبته، وجبروته، وأعرف كل ما انتهى إليه الحقد في داخله، أجاب بهدوء الواثق، المالك، القادر، المستبد، المتسلط:

- هذه الأرض بغيتنا.

ومات اشتهائي حنقًا. الله يا زمن، كان بصحبتي أرض، وزعتها حبًا للعصافير، وعاشقي الخبز، ولكن ليس لي، بعد اليوم، من أرض تعاشرني، فقد سلبوها، سلبوا كرامة الإنسان في داخلي.

كانت الأرض فضاءً مفتوحًا. وكانت السماء هنا حاضرة، حاضرة أكثر من أي مكان آخر. ترى ما الذي جعلها تدنو مني!

أوتراني أنا الذي تساميت حتى لامست وجنتيها. أخالكم لن تعرفوا، لأنكم لم تكونوا هناك حيث كان المدى في قبضتي. كنت أرقب الأرض عندما باركت مولدي. قالت لي الأرض إنني ولدت كبيرًا، وعاشقًا، ومسحورًا بفتنتها. وحين حضر أبي إلى حافة الموت، جاءت الأرض، في وداعه، عروسًا، تحمل بشرى الأمل في حناياها. أيقن أبي بفراسته أنني الحارس الأمين من بعده. مات أبي وهو يبتسم. وقد قيل إن أبي كان نادر التبسم إلا عندما يغتبط. ترى لماذا لا أغتبط؟! إنني أقرب من حافة الموت، وليس لي الفرح نفسه. من سرق فرحي الذي عايشته كظلي. لم تخرج الأرض في ولادة ابني. ولا لبست الفرح نفسه عندما ولد. أليست الأرض هي الأرض نفسها؟!

❀ ❀ ❀

جنوبي أنا. كان لي بيت من حجر وطين، بناه من قبل جدي الأكبر الذي أغوته تضاريس المكان بالبقاء. وكان كل جد يأتي يستطيب وعورة المكان. وليس ذنبي أنني ورثت أجدادي في حب الكبير. اكتشفت كيف أطوع المكان لحاجتي. وتعلمت أن الأرض والمطر هما بذرة أساسية في تشكيل حياتي.

رحلتي في المكان هي دورة الأرض نفسها. أنتظر المطر، أحرث الأرض، أبذرها، أحميها، أصرمها، أقتات خراجها. وتدور الأرض، وأدور معها في رحلة حولية. ركض موسمي يتكرر كطلوع الشمس وغروبها. لم أحصل في حياتي على نياشين وأوسمة للشجاعة والفروسية، رغم أنني أستحقها. فقد كنت شجاعًا عندما تحمّلت ألم الجوع، عندما صبرت على قسوة السماء، عندما مكثتُ أنتظر ألق الأرض أيامًا وليالي

كثيرة. لم يقل أحد من العارفين بجنون الجنوبي، بل لقد مجّدوا عهدي، وصبري، وحبي. هم وحدهم فقط، الطارئون الجدد، هم الذين قالوا بموتي. هم الذين أرادوا تعليب أرضي. وضعوا لها وظيفة تحط من قدرها. الأرض بكت نفسها عندما رأتني أبكي. قد تعجبون، لماذا أبكي؟! والله ما كنت سأبكي لو لم يكن قاتلي جبارًا، غليظًا، بغيضًا حقودًا، . . . . يومذاك، انطفأ تدفق النور المنسكب في بقايا عمري. أرضي التي مرغت خدي في ترابها لم تعد هناك. فقد رحلت، تبدل وجهها، تبدلت وظيفتها. أصبحت تضم كل شيء إلا الزرع والنماء والعنفوان.

❀ ❀ ❀

ولكن لا، لست الجنوبي إن لم أنتصر لأرضي. سأقول لمن يعنيه قولي: إن بيني وبينها عهدًا ألا نفترق. عندما ينقضي وجه الليل، يأتي صباح أبيض، أبلج، من مفرقيه ينسكب ضوء آخر، ضوء للعاشقين، للصامدين، للمظلومين، للباحثين عن الحق. يا سادتي، غدًا سأكون بين يدي القاضي. سأقول: مظلمة يسيرة، والحق أبلج، يا جناب القاضي. سيصدقني القاضي. وسيعيد اعتباري. سيأمر بعدم المس بتراب هذه الأرض. سيحكم بأن تبقى الأرض أرضي.

وعندما أقف بين يدي القاضي غدًا، سيسألني عم أود قوله؟ سأقوله له ما لم تقله الأحداث. سأقول كفى عبثًا. سأقول أنت الخصم والحكم. سأقول لمقام القاضي إن الأرض أصبحت استثناءً في حياتنا. سأقول إن وجه الأرض شاخ، واشتعل بؤسًا. سأقول له إنني أنكر الأرض التي رضعت أثداءها

طوال عمري. سأقول إنني أنا الجنوبي الذي شاخ على ساعديه الفأس والمحراث والمسحاة. سأقول إنني أنا الذي شاخت على ساعديه أعواد الذرة. سأقول لجناب القاضي إنني أنا الجنوبي الذي تعرقت قدماه في أثلام الأرض. سأقول إنني أنا الذي خاضت قدماه في وحل الأرض. سأقول إنني أنا الذي نقشتُ على صدرها عقد لؤلؤ من ذرة وبر وشعير ودخن. سأقول إنني أنا الذي مكثت أصلي حتى تمتزج السماء والأرض في عرس موسمي بهي. سأقول لحضرة القاضي إنني أنا الجنوبي الذي يموت ولا أرض له.

❁ ❁ ❁

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي. . .

❁ ❁ ❁

ولما حلَّ النهار لم أتبين بياضه من سواده.

1997

رحيل الأستاذ بخيت

مزيدًا من الحيرة، مزيدًا من التساؤل عن الكيفية التي صودر بها حقه في التعبير. يذكر أنه ذات ضحى تسلم خطاب ترحيله إلى قرية نائية. قرأ بمرارة السقم في داخله:

«بسبب تجاوزك في التعبير عن رأيك حول مسألة انعدام الطباشير فقد قررنا ترحيلك تأديبيًا إلى قرية نائية.

التوقيع: مسؤول الجزاءات

قبض على صفحة الخيبة في يده. حدق إلى عينيه من الداخل. كان دم الضوء يجري منصبًا كشاهد قبر قروي. انتهك حرمة الصمت التي ظل يلزم نفسه بها. تذكر أن أباه كان يردد: «الصمت عبادة». ومرة قال له: «اصمت، إن لم يكن من أجلك فمن أجل الآخرين». أقلقه صمت الطباشير أيما قلق. أوحت له المسألة بانطفاء الضوء بين أصابعه. ثلاثون سنة رافق فيها الطباشير. طوى عليها من شغافه دم الحب. الطباشير التي رسم بها شكل الحقيقة، وجه الضوء، رائحة الحب، بادلته هاجس الحيرة. ضبط من قبل متلبسًا بحالة عشق بيضاء. قيل فيما بعد إنها كانت سنبلة الوصال التي أسكنها رحم الطباشير. في الصباحات، كان يرتدي أعين الصبية. يملي عليهم لماذا أصبح للشمس عين واحدة؟ يذكر أنه عندما قال عبارته ذات المذاق الغريب:

- أيها الصبية، هل تعرفون لماذا يوجد لكم أصابع؟

قالوا:

- «لا علم لنا إلا ما علمتنا»، ولكن ربما نأكل بها حينًا، وحينا نقضي بها حوائج أخرى.

قال:

- لم تبتعدوا، ولم تصيبوا عين غايتي، أصابعكم خناجر».

وصعد أحد الصبية، ورسم كفًا بخناجر، صفَّق بقية الصبية، وحياه الأستاذ، وعاقبه مسؤول الجزاءات.

تصفّح الأستاذ بخيت خطاب ترحيله مرة ثانية. تساءل بحدة: «ماذا يعني انعدام الطباشير؟» هو يعلم أنه قد حسم المسألة في ذلك الاجتماع الشكلي. يذكر أنها المرة الأولى التي قال فيها:

- لا، بصوت معجون بالصدق والعمق والوضوح.

سألوه بحدة:

- وماذا يعني انعدام الطباشير؟!

اندهشوا حين قال:

- يعني رحيل الضوء من الأعين.

استعاد جو الفوضى الذي ساد إثر سماع مقولته. راقب الأستاذ بخيت تقلص وجوههم، احمرار أعينهم، سلبية الأفعال المضطربة. امتلأ وعاء السخرية في داخله. عرف أنه حاصر تصرفًا غير مسؤول في دواخلهم. لكنه أبدى خشيته من عدم اكتمال دائرة التأثير، ومع ذلك آمن أنه قد قال كلمته ومضى. ما

يحزنه حقًا هو أولئك الصبية. كيف يواجههم بالنبأ؟ هل يفهمون ماذا يعني انعدام الطباشير؟ هل يحيطون بدائرة الأمور؟ هو متيقن أنه أعطاهم قطعة من فؤاد. توضأ بحدتهم، بضوء أعينهم. الآن لم يبق إلا خطوات تضعه أمامهم. مشى إلى قاعة الدرس مستجمعًا كل القسمات التي ألفها، كل الشقاوات التي عشقها. مع الخطوة الأولى إلى الصف فوجئ بالصمت، بالأعين التي تمتص البكاء. لم يكن لكلماته معنى. مشروع رحيله كان سؤالًا حادًا. حاصره إيقاع الكلمات الحائرة. تساءل: كيف يمكن أن يرتشف حيرة الكلمات من ألسنتهم. وجع الاغتراب يصهل في داخله، والبوح يغور في وحل الانتهاء. كيف يمكن أن يكون للطباشير نهاية. إنه الاشتهاء الظاهر والباطن. من رحم الشمس ينبثق لون المدى، والأعين تتكور دمًا للعشق والابتداء. ودَّ لو يعرف كيف يكون لون الاختناق، شكل الذبول، عمق السقوط. ظل يرفض رحيل الأشياء بلا انتفاضة، بلا امتلاء.

هو الوجع القروي يأتي مرارًا، وفي الطين يفتض شيخ بكارة موسمه. ويعلو على يده لون الخصوبة والاشتعال، وتمتد أم بطول الطريق، تسائل الأقدام: لماذا وأين الرحيل؟ بحدة برق ليلي طرد ارتماء الذبول في عينيه. أراد أن يشكل للرحيل في قدميه معنى. سأل الصبية أن يرقصوا. قال لهم باسم الطباشير نغني. دائرة بعرض أحلام الطفولة تشكلت. الأرض مارست عشق الإيقاع. الأقدام شربت فرح الغبار. الآن ـ قالها الأستاذ بخيت ـ أسألكم أن يكون لكم أعين تسألون بها، ثم مضى خطوة نحو باب الصف. مارس الصبية مثلها. التفت

بدهشة. عاود السير. تسارع خطو الصبية في أثره. وقف ووقفوا عند باب الخروج. تمثلت له الأشياء بوابة من نار. سأل الفضول في داخله: أي خروج هذا؟! من أعماقه كانت الأشياء تتشكل بشكل حميم. هنا الأعين تورق اشتهاءً، تصهل حبًا. يأتي هناك، هناك اللاشيء؛ انطفاء الأعين. خروج إلى اللاخروج. كيف يمكن أن يرى عينيه، أن يرسم وجه الطباشير؟! شكل آخر خطوة نحو الخارج. في الحال. هزته يد قاسية أعادته إلى جو المكان. أدرك أن عليه أن يثق بصبيته. نزع من داخله رغبة البقاء. قادته أيد حديدية نحو الظلمة. سقط في السواد كلاشيء. في البدء، حاول أن يتذكر لون الطباشير، لكنه تذكر لون السوط وألمه. كان يمارس شهوة البقاء داخل مكان بحجم مؤخرته. تذكر الصبية، والطباشير، والكف ذات الخناجر، ولم يصبر على الانتظار. ولما كان اليوم التالي كان الصبية يزرعون الطباشير في الحيطان، ويسألون الشمس ضوءًا يضيء ظلمة الأستاذ بخيت.

1988

سيِّد الأبواب

. . . ولما كان الصباح تقاطر الناس إلى دار المحكمة. هناك جلس سيد الأبواب كأن ليس في الدار غيره، يرفل في أبهته، وغلظته، وجبروته. بعد أن اكتمل حضور أطراف القضية وشهودها، سأل القاضي سيد الأبواب بفظاظة:

من أنت؟

أجاب سيد الأبواب بزهو مفرط:

أنا الباب لا أهرم. أنا سيد الأبواب. لي ما ليس للناس من هيبة. عندي يلتقي المادحون وذوو الحاجة. مع الأيام أصبحت من لا عنوان له. أنا حارس السور العظيم. وخلفي حارس، وللحارس حارس آخر، وللآخر آخر، والكل محروسون من حارس الحراس. وحتى حارس الحراس يعلم أنه تحت الحراسة.

نعم، لقد بقيت أنا سيد الأبواب. أشرعت صدري دومًا للطائعين. تذكرت، كذبت عليكم. كذبة بيضاء أو حمراء أو سوداء، فليس بمقدوركم كشف تزويري. نعم، لقد أغلقت نفسي ذات مرة. مللت وجوه المادحين، بالتأكيد أحب تملقهم، أحب خنوعهم لي، فأنا سيد الأبواب، كما تعلمون. آه. . كذبت عليكم للمرة الثانية. لقد أغلقت مصراعي ألف مرة. يا أيها

البسطاء، كرهت وجوهكم. كرهت لون الكذب في عيونكم. أعرف مسبقًا كرهكم لي، ولذلك فإنني أعترف للمرة الثالثة، وربما لن تكون الأخيرة. لقد أغلقت نفسي... نسيت الرقم. بل لم أعد أذكر. لا يهم، فقد زيفت أقوالي، فلي شكل باب ولست بباب.

غضب القاضي وأمر سيد الأبواب بالجلوس. توجه بكلامه إلى جماعة الشاكين.

- ما هي شكواكم، يا جماعة الشاكين.

تكلم كبيرهم وهو ينظر بأسي إلى الحال الذي وصلوا إليه:

- كنا صغارًا. وكان الهوى وطنًا. وكان لدارنا باب، غليظ سميك، بغيض. وكنا نخاف أن نقرعه، فخلف الباب تنين يحذرنا، يهددنا. وصدقنا قصة التنين حتى اسودَّ وجه الدار. وكنا نكبر كل يوم ألف عام. وكان الباب يزداد كبرًا وظلمًا. وكنا نهرم كل يوم ألف عام. وكان الباب لا يهرم. وحارس الباب لا يهرم، وخوف الباب لا يهرم. وكنا نرى الباب سيفًا، تجذر بعضه حينًا، وحينًا تصلب وجهه حتى غدا ضجرًا، يبتز ما كان من أحلامنا. وأيقن الباب أنَّا استكنا، أنَّا رضينا من التعب بالإياب، أنَّا تضاءلنا إلى حد العدم.

أيها القاضي، لقد كان لنا قرار، أن نهزم الباب، أن نصرع جموده، تجرأنا قرعنا الباب قرعًا لينًا. لم ينفتح. تجرأنا، قرعنا الباب قرعًا أشد. لم يرتعش. تجرأنا، هجمنا

نكسر الباب، فانشق وجه الباب عن لا شيء. فلا حارس بالباب ولا تنين.

نظر القاضي إلى جماعة الشاكين نظرة مفعمة بالرثاء والشفقة، ولكن كيف يمكن أن يساعدهم. أمر سيد الأبواب أن يعتذر لهم عن هذه الخدعة التي كلفتهم سنوات العمر.

وقف سيد الأبواب، وقال بغضب:

- لست أنا من يعتذر، أيها القاضي، هم الذين عطلوا واجبي. أنا مقصر عندما أتخلى عن عملي.

قال القاضي:

- ما هو عملك بالضبط؟!

- عجبي، ألم تفهم واجبي العظيم بعد!

فجأة دخل رجل إلى قاعة المحكمة. همس في أذن القاضي الذي غير سحنته وقال:

- نأسف يا سيد الأبواب. هناك خطأ في القضية. أنت صاحب الدعوى، وهؤلاء الناس هم المدعى عليهم.

1997

حَدَّث كَثِيبٌ قال

للصحراء وجه أبيض، يرصد تقلبات المواسم. حالة تميز الصحراء عن غيرها من البقاع. وقف كثيب يتأمل اختفاء الأفق. سأل أشياءه عما تبقى له من الصحراء. كان يعتقد أنه الأقدر على فهمها. لا، لقد تغيرت الأحوال، لم يعد جمله السفينة الوحيدة في هذا المدى. جمله الذي طالما اكتوت أخفافه بالرمضاء والتعب اليومي، الآن يجثم بلا حراك، معطيًا جسده للمداوي.

كثيب يتساءل: لماذا أنا؟! لماذا الصحراء؟! أسئلة تهز كينونته. ود لو يعرف لماذا؟ سأل صحراءه بأي ذنب عوقبت. قال المداوي:

- لابد من إخراج الرصاصات من جوف الجمل.

بعينين يغلي فيهما رمل الظهيرة، حدق الجمل إلى المداوي، إلى كثيب، إلى الأفق الذي بدأ يضيق بالناس والآلات. بعد زمن ليس بالقصير أعلن المداوي عجزه عن إخراج الرصاصات التي استقرت في جوف الجمل.

تتابعت الأيام. ضاقت الصحراء بما رحبت. تألم كثيب أن يجد نفسه ملزمًا بالتجوال في محيط ضيق الأبعاد. هو الذي ظل يجوب الصحراء بلا حدود. يجد نفسه وأهله وناسه مهددين

بالفناء، ربما رصاصات طائشة كالتي أقعدت جمله. لكنه الآن في حالة قعود من نوع غريب. أمنه، أشياؤه، مفردات الصحراء بكاملها أصبحت مستلبة. خرج من خيمته. حدق إلى سماء الليل. أدرك بشاعة الأشياء. قالوا له إن هؤلاء جاءوا لحمايته، لحماية الصحراء وأشياء أخر.

آه يا جملي، يوجعني الصمت، صمتك، صمت الصحراء، بل يقتلني صمتي. تساءل كيف يغير الأحوال بذاته. ارتعش في داخله وجع الفرديَّة. كره أن يغير بمفرده. لكن والحالة هذه، الخروج خير من القعود. خرج في ستر الليل. هو يعرف كيف يسامر الصحراء. اعتاد أن يقضي كثيرًا من أموره في حالة كهذه. ألقى نظرة خلفه. رأى سراج خيمته يذوي. حدق باتجاه الأفق. واصل سيره. استقبلت أذناه ضجة غريبة. ترى ماذا يحدث؟! وقف يتأمل ما يسمعه. أدرك أن المحيط من حوله غير مألوف. هي اللحظة جاءت. المواجهة قائمة لا محالة. كيف ومتى، أسئلة لم يجد لها إجابة فورية. غير أنه في داخله متيقن بالقدرة على المواجهة. عيناه أحاطتا بكل جوانب المعسكر. تمركز في مكان آمن. راقب المكان بدقة. لمح في طرف المعسكر بعض الجنود يتضاحكون. وفي الركن الجنوبي من المعسكر امتزجت الأصوات في مرح صاخب. ودَّ لو يعرف ما يجري في الداخل. لم يعد يرى أي جندي في الخارج. سنحت فرصة الاقتراب. فضل أن يزحف على بطنه. ها هو الآن يمد يده إلى الخيمة. الصخب يصم أذنيه. استل خنجره ليحدث ثقبًا في سياج الخيمة. ثقب بمقدار استدارة عينيه. نظر. ماذا؟! فرك عينيه وأعاد النظر. سقطت عينه على أرجل عارية.

تسلق بعينيه أرجل القوم. مساحة العري تكبر. ارتشح جسمه بعرق ساخن. قيل له إن المرأة كلها عورة إلا . . . ! صهلت البداوة في صدره. تراجع إلى الخلف. زحف إلى مكانه السابق. على الرغم من شقائه، يعتقد أنه قد عرف قليلًا مما يجري. تمالك نفسه. فكر في القادم. رأى شبحًا يتمايل من بعيد. اقترب بحذر. المسافة تتضاءل. علم عمق المواجهة. جندي مسلح. حدَّث كثيب قال:

- أيتها الصحراء هذا غريمنا. أقْعَدَ جملي، انتهك نقاءك، صادر رحابك، ثم هذه قضيتي، وهذا غريمي، أيتها الصحراء اشهدي.

ارتقى كثيب تلًا صغيرًا. قفز على الجندي من الخلف. لوى عنق الجندي بيده اليسرى، مطبقًا بكفه على فمه. تناقصت مقاومته. كمم كثيب فم غريمه. أخرج كثيب حبلًا من جيبه. قيَّد به يدي الجندي من خلف ظهره، ثم قيَّد رجليه أيضًا. أمسك كثيب طرف الحبل وبدأ يسحب الجندي نحو خيمته.

عندما وصل كثيب إلى خيمته، سحب الجندي إلى مربط الجمل، ربطه إلى جانب جمله الكسير. غمغم الجندي بشكل غير مفهوم. تركه كثيب وخرج. أحدث الجندي حركات احتجاج صاخبة.

في اليوم التالي، لاحظ كثيب حركة غير عادية. عربات بلون الصحراء تجوب المنطقة. دنت من خيمته إحدى هذه العربات. ترجل منها رجل عرف من ملامحه أنه من دمه. قال الرجل لكثيب:

- لقد ضيع العجم واحدًا منهم البارحة. هذه صورته. هل رأيته؟

لم يكترث للنظر إلى الصورة. أجاب:

انصرفت العربة متوارية خلف الرمال. صرخة قادته إلى الداخل. أسرع كثيب. كان الجمل يحتضر. أزبد فم الجمل بزبد مشوب بحمرة قانية. شهقت دمعتا ألم في عينيه. دار كثيب حول نفسه. كان غريمه يراقب ما يجري بدهشة. أرسل كثيب في طلب المداوي. غامت عينا جمله بدمع ساخن. أحرقه عجزه. أراق على ظهر الجمل دلوًا من الماء البارد. استقبلت الصحراء سقوط الجمل بحزن مهيب. ارتج كثيب لرجفة الموت. دخل المداوي. تسمرت عيناه. دنا من كثيب مواسيًا. حدق كثيب إلى الجندي بعينين من غضب. قال:

سجل شهادتك. قل لهم: لماذا نحن؟ لماذا قتلوا الصحراء فينا؟

انتحب نبأ الموت في الآذان. لعن الناس من كان السبب في ذلك. أشار الرجال على كثيب بأن يحملوا الجمل إلى خارج الحي. رفض. وفي المساء شرعوا يحفرون. عندما انقضى ثلثان من الليل كانت الحفرة قائمة بذاتها.

ساد الصمت لحظة، قطعه صوت كثيب طالبًا إحضار المحفة. وضعوها إلى جانب الجمل. قلبوه عليها، وحملوها إلى حيث مدفنه، وضعوا الجمل في داخل الحفرة، وأهالوا عليه ترابًا معجونًا بشموخ الإنسان.

في صباح اليوم التالي، وقفت مجموعة من الشاحنات بين

خيام الحي. نزل منها عدد من العساكر يأمرون الناس بالرحيل. بدأ الناس بتنفيذ الأوامر بضيق معلن. اندهش كثيب لما يجري. في البدء لم يصدق ما يرى. ربما هنالك حالة التباس. يجب أن يرحل الآخرون لا هم. رحيلهم من قبل كان من الصحراء إلى الصحراء. والآن عليهم أن يتركوا الصحراء بأكملها؟! لمن؟! يالسخرية الأحوال! أقسم كثيب ألا يبرحها. قال للناس:

- قوموا إلى صحرائكم يرحمكم الله. امتشق بندقيته. ووقف على باب خيمته. أجبروه. ضربوه. قسوا عليه إلى حد الإهانة. غضبه انطلق رصاصًا مدويًا. سقط كثيب شامخًا كالمطر. كانت دماؤه توقع ميثاق العهد والديمومة. وكانت أصابعه تتسنبل جذورًا في جوف الصحراء.

1991/2/22

حالة إغماء

بندول الساعة يدق الثالثة صباحًا، يزداد اضطرابي. زوجي في حالة إغماء تامة. يا إلهي، ماذا أفعل؟! لا أهل لنا ولا أقارب في هذه المدينة. أحس بغربة جارفة هنا. يا له من إحساس فظيع. ما العمل إذن؟ فكرت في الهاتف! نعم الهاتف يمكن أن يسهل مهمّتي. اتصلت بالمستشفى. لا أحد. كررت الاتصال مرات كثيرة ومتلاحقة. أخيرًا أجاب الذي فجعني صوته النائم. سألته أن يرسل سيارة إسعاف لتنقل زوجي إلى المستشفى. وقبل أن أكمل، أحالني إلى قسم الطوارئ. كررت طلبي. أجاب من كان يمارس شهوة النوم بلذة مفرطة. استنكر اتصالي المتأخر جدًا، ولكنه أمطرني بسيل من التساؤلات التي تنبئ برغبته في الخلاص من إلحاحي. قال بلا مبالاة:

- هل زوجك محترق؟
- لا.
- غريق؟
- لا.
- سقط من فوق المنزل؟
- لا.

- ماذا إذن؟!
- مغمى عليه.
- من أي شيء؟
- لا أدري.
- آسف، هذه حالة عادية جدًا لا تستدعي إرسال سيارة إسعاف.
- لكن...

سمعت صوت السمّاعة يرن في أذني بحنق وغيظ بليد. نظرت بخوف وارتباك إلى زوجي. عيناه شاخصتان، تكبر فيهما مساحة الذبول. فكرت أن أطرق باب الجيران. أنا لا أعرفهم. العلاقة بيننا آلية. ليس هناك ما يمكن أن يشفع لطلبي. تجرأت.

طرقت الباب مرة، مرتين، ثلاثًا. جاءني صوت امرأة مجهدًا، ودون أن تفتح الباب، قالت:

- من؟
- أنا جارتكم.
- خيرًا.
- زوجي في حالة إغماء.
- ماذا أفعل لك؟

قلت بكل الرجاء الذي أملكه:

- هل بإمكان زوجك أن ينقل زوجي إلى المستشفى؟
- آسفة، زوجي نائم.

عدت بخيبة الدنيا في قلبي. خرجت إلى الشارع أتصيد سيارة أجرة في هذا الوقت المتأخر من الليل. لا أحد هناك. عدت أعدو. زوجي مايزال في حالة إغماءته المتواصلة. يا إلهي، ماذا أفعل؟ وقعت عيناي على مفتاح سيارة زوجي المعلق بالباب. نظرت إلى زوجي. هززت جسده. كان بلا حراك. انسحبت عيناي تلقائيًا إلى مفتاح السيارة. هل يمكن؟ لا، صعب جدًا. مغامرة محفوفة بالمخاطر. ولكن زوجي على حافة الموت. أحسست بفيض من العرق يغسل جسدي. لم أشعر باضطراب مثل الذي يجتاحني الآن. سمعتي، سمعة زوجي على المحك. ولكن زوجي يموت. أيهما أقسى؟! الموت، أم السمعة؟! كلاهما مر. توكلت على الله. لبست عباءتي. تنقّبت، ووضعت النظارة فوق النقاب. حاولت حمل زوجي، لكنني لم أستطع. جرجرته بحرقة وألم شديد. أجلسته في المصعد. أقفلت الباب. مع هبوط المصعد، كنت أحس بأن روحي تنسل من جسدي. شعور غريب اجتاحني. هل يمكن أن أنقذ زوجي؟! ولم لا؟! سألت نفسي: والعاقبة؟ لا صدى إلا وجيب الخوف والقلق والرغبة في نجاة زوجي. وصلت إلى السيارة. فتحتها. طرحت زوجي في المقعد الخلفي. تلفت يمنة ويسرة، لا أثر للمارة، لا أثر للعسس، لا أثر إلا لليل البهيم وأنا. مغامرتي تولد. الليل هو ستري وشفيعي. الليل بلون عباءتي. ولكنني أحب النهار أكثر. ترى متى يأتي نهاري؟ جاءت اللحظة الحاسمة. يا لها من مشاعر عنيفة. وضعت نفسي خلف مقود السيارة. أدرت المحرك. تحركت السيارة. اجتاحتني ذكريات

آخر مرة كنت أقود فيها السيارة. عندما كنت بصحبة زوجي أثناء دراسته في الخارج تعلمت أن أقود السيارة. نعم أعرف هذا المقود، أعرف جيدًا. مئات المرات قبضت عليه بيدي، مئات المرات خدمت نفسي بنفسي. مئات المرات لم أرهق زوجي بتوصيلي إلى حيث أريد. هنا فقط، أدركت عمق إعاقتي. الآن أمحقها في ظرف خاص جدًا. ترى هل في الأفق ضوء آخر؟! كنت وأنا أقود السيارة أختلس النظرات. لا أحد إلا أنا والليل وزوجي الغائب. تهادت السيارة باتجاه المستشفى. كان وجيب قلبي يتسارع. فكرت في ما أفعله الآن. فكرت في زوجي الحاضر الغائب. فكرت في ردة فعله. أحسست بأنني أرى العالم بعيون جديدة. كم جبت هذه الشوارع من قبل، لا أذكر رقمًا محددًا. المسألة أنني كنت أجوب الشوارع بحيادية تامة. وفي كل مرة أرافق زوجي أتأمل البنايات العالية، والمحلات الراقية، ويدهشني أكثر ضجيج السيارات ونزق السائقين. ولكن ليس هذا عالمي. إنني في المكان ولست فيه. الآن، فقط، من موقعي خلف المقود، أحس أنني أرى الشوارع لأول مرة. أحس بأنها تعني لي شيئًا مختلفًا. الإشارات الضوئية، الأضواء الفسفورية، المنحنيات، مخارج الخدمات، تعدد السيارات، الحفر، المطبات الاصطناعية، كلها مفردات بدأت تتضح معانيها. الآن أصبحت أفهم صراخ زوجي كلما رأى مطبًا مفتعلًا، أو حفرة مفاجئة. فجأة تحت ضوء سيارة تومض لي. تجاهلتها. نظرت إلى زوجي، مايزال في إغماءته. تحركت السيارة ذات الوميض. أدركت أنها تطلب مني التوقف. هل

أتوقف، سألت نفسي؟ ولكن محاولة إنقاذ زوجي ستضيع، وربما يهلك بسبب توقفي. ضاعفت سرعة السيارة حتى أصل إلى المستشفى. الوقت ليس وقت التراخي. وبقدر سرعتي، ضاعفت السيارة الأخرى سرعتها. عندئذ أيقنت أن السيارة ذات الوميض المتسارع، لا محالة في إثري.

1997

رهوان وبائع الجرائد

مر عام، عامان، ثلاثة، ولكن لا خبر. أبي الذي اعتاد أن يوقظني كل صباح، لم يعد يفعل. كان يرى في كل صباح أملًا جديدًا في حصول ابنه البكر على وظيفة. الوظيفة.. الوظيفة، أصبحت مفردة بغيضة إلى نفسي. أحمل شهادة جامعية، ولكن بلا وظيفة. أشعر أنني معاق. نعم،أنا معاق بشهادتي. أنا لست عالمًا، ولا أصلح أن أكون باحثًا، ولكن مقصدي أن أعيش، أتكسب بشهادتي.

في هذا اليوم، استيقظت قلقًا، مضجرًا، لاحظت أمي هشاشة وجهي، بادرتني قائلة:

- متعب أنت يا رهوان؟!
- كعادتي، يا إلهي.
- لا. أنت أكثر تعبًا. استرح قليلًا في فراشك.
- سأخرج.
- وأنت هكذا.
- نعم.

وخرجت مندفعًا نحو الشارع، وأمي تشيعني بكثير من الدعاء الذي أحتاج إليه. أنا قليل البخت، سمعت أبي يقولها

ذات مساء لأمي. وقال أيضًا بحرقة بالغة بأنني تعبت ودرست والتالية جالس في البيت. أبي مسكين، وأمي مسكينة، وأنا مسكين. أبي مسكين لأنه اعتقد أن الولد هو العزوة وضمان المستقبل. وأمي مسكينة لأنها تريد أن تفرح بولدها الوحيد. وأنا مسكين لأني بلا مستقبل. أختي التي كان يحسبها أبي عبئًا عليه تزوجت. لم تعد أختي عبئًا. أصبحت أنا العبء، الشخص المعاق. فكرت أن أعمل سائقًا، أو محاسبًا، أو منظف سيارات. وجدت هذه المهن لا تحتاج إلى مزيد من العمال.

توقفت أمام بائع جرائد. أمسكت جريدة وتصفحتها.

نهرني البائع:

- ممنوع القراءة.

لم ألتفت إليه. قال بصوت حاد هذه المرة:

- قلنا ممنوع.

قلت له:

- بقي صفحة واحدة.

قال وهو يخطف الجريدة مني:

- ادفع ثمنها.
- ليس معي ثمنها.
- لا أصدق!
- هذا شأنك.
- هل تقصد ليس معك الآن؟!

- ليس الآن وليس غدًا ولا بعد غد.
- لماذا هذا التشاؤم؟
- ليس لدي عمل.
- ولماذا ليس لديك عمل؟

لأنني أحمل شهادة في التاريخ!

- ما علاقة الوظيفة بالتاريخ؟

قالوا ادرس التاريخ لتحصل على عمل مناسب.

درست ولم أحصل على عمل.

- تتكسب بالتاريخ؟!

حاولت أن أصحّح مفهومه عن دراسة التاريخ، ولكنه قال مستكشفًا:

- هل تريد عملًا؟
- قلت بحرارة استغربها هو:
- نعم!
- تساعدني في بيع الجرائد وأعطيك نسبة؟!

لاحظ انكساري وخيبة أملي، فأردف قائلًا:

- مؤقتًا حتى...

قاطعته بحدة تعكس ما بداخلي:

- حتى أجد للتاريخ وظيفة تحفظ كرامته.

قبلت هذا العمل رغبة في الخروج من مأزقي ولو بشكل

مؤقت. الضجر والملل والانتظار، ثلاثية تقتلني. وأبي وأمي يعيشان مأزقي لحظة بلحظة. أخبرتهما أنني وجدت عملًا مؤقتًا. زغردت أمي، ودعا لي أبي بفتور. قرأت في وجهه عدم الرضا. أنا نفسي لست راضيًا، قلت له ذلك. أضفت لابد أن أعمل أي شيء حتى تفرج. أنت تعرف يا أبي أنه ليس لدي أي حرفة يدوية. ذهبت إلى فراشي مبكرًا، انتظرت الصباح، انتظرته أكثر من أي صباح آخر. مرت صباحات كثيرة منذ تخرجي وأنا أنتظر وهم الوظيفة. ولكن الوظيفة لا تأتي. في مكتب التوظيف، وضعوا إعلانًا لا تخطئه العين (لا توجد وظائف شاغرة لحملة شهادة التاريخ و... و.... و... و...).

نعم هذا الصباح صباح آخر. إنني أحب كلمة الصباح، بكل ما تعنيه من تجدد وأمل ينبت مع إطلالة الشمس المتجددة. أشعر أني أركض باتجاه الشمس، أستعجل شروقها. لا أدري إن كنت قد نمت أم لا. نهضت من فراشي رشيقًا، متحمسًا، أتقد رغبة في العمل. قبلت رأس أمي وخرجت محمولًا على نهر متدفق من دعائها. توجهت إلى بائع الجرائد. وفي طريقي عزيت نفسي بأن الحركة فيها بركة. فربما تأتي الوظيفة بعد شهر أو شهرين. كما أنه ليس عيبًا أن يعمل الإنسان أي عمل، مادام شريفًا. وفكرت في العائد المادي. ولكنه لم يكن هاجسي. فأنا أعرف أنه سيكون قليلًا. إنني أريد أن أعمل وكفى، وإذا لم أعمل فسوف أجن، سوف..! لا داعي للثرثرة. وبخت نفسي، ومضيت أحث الخطى نحو بائع الجرائد. فكرت في مهنته. إنها ليست سيئة، رزقها محدود فقط. يجب أن يكون كذلك، فهو لا

يحمل شهادة عالية. ولكنني أحمل شهادة عالية وليس عندي مهنته. بل إنني أسعى إليه. أحسست بحرقة دفينة في صدري. تساءلت هل يمكن أن أعيش بلا وظيفة! زاد غيظي. وفي كل مرة يجهدني التفكير كنت أهرش رأسي، حتى سقط ذات مرة عقالي. رأيته يتدحرج بين السيارات. ركضت بين السيارات جريًا وراء عقالي دون أن أشعر. تقافزت أبواق حادة من كل الاتجاهات. جفلت من حدتها. أكملت طريقي حتى وصلت إلى الشارع الذي يقبع فيه بائع الجرائد. لم أجد البائع في مكانه المعتاد. ذرعت الشارع طولًا وعرضًا. لم أعثر عليه. ما الذي حدث؟! اقتربت من صاحب بقالة وسألته عن بائع الجرائد. أخبرني بأنه قد انتقل إلى الشارع الخلفي. جريت إليه. كانت الشمس قد بدأت تصب غضبها الصيفي. أحسست بالعطش. شربت من ماء سبيل في طرف الشارع. بعدها حدقت إلى كل زوايا الشارع. لم أر أثرًا لبائع الجرائد. واصلت بحثي عنه في الشوارع المجاورة. سألت المارة إن كانوا قد رأوه. لا أحد يهمه إن كان هناك بائع جرائد في الشارع أم لا. إنها مسألة تخصني وحدي، كان يجب أن أعلم ذلك. وسعت دائرة البحث. وكان كل شارع يفضي إلى شارع آخر. وكل شارع يفضي إلى فراغ آخر. رأيت الشوارع شكلًا واحدًا. الأرصفة نفسها والبنايات تتكرر. حتى المارة هم المارة أنفسهم في كل الشوارع. الشمس تبوأت قلب السماء. راحت ترسل جبروتها فوق المارة. خلت الشوارع تقريبًا إلا مني. تصببت عرقًا وتملكني الإعياء حتى فقدت التركيز. استندت إلى سور مبنى

قديم. رفعت بصري بتثاقل. رأيت بائع الجرائد يقطع الشارع من الجهة الأخرى. قفز قلبي فرحًا. جريت لا ألوي على شيء. وصلت لاهث الأنفاس. لا أصدق. لم أجد البائع ولا جرائده. ترى من الذي رأيت! جرجرت قدميَّ حتى وجدتني أعود إلى أول شارع شاهدت فيه بائع الجرائد بالأمس.

1997

بقايا صبر

سمع صبر صوتًا..

بل رنينًا هاتفًا في السحر، ربما قبل ذلك، وربما بعد ذلك. لم يعد يذكر. لا يهم الوقت. ما يهم أنه سمع رنين هاتف يقرع أذنيه. تملكته رعدة. اضطرب. بسمل. خشي أن تكون شقته مسكونة. هو متيقن أنه لا يملك خط هاتف في بيته حتى يتوهم ذلك. أيقظ زوجته. قص عليها ما رأى وسمع في منامه. هدَّأت من روعه. أكدت له أن ما حدث مجرد أضغاث أحلام. دعته أن يحاول النوم مرة أخرى. وضع صبر رأسه على الوسادة، لكنه لم ينم. تساءل ما إذا كان هناك علاقة بين بحثه اليومي الدؤوب عن خط هاتف وهذا الحلم؟! تساءل ما إذا كانت رحلة خمس سنين من البحث عن خط هاتف قد تحولت إلى مادة دسمة لعقله الباطن؟! ولكنه عاد واستدرك إن تخزين العقل الباطن لا يقاس بالزمن، بل بعمق ومرارة التجربة.

❀ ❀ ❀

في العمل، عندما رنَّ جرس الهاتف جفل صبر. ضحك زميله وسأله:

- ألم تسمع رنين الهاتف من قبل.

- بلى، ولكن...
- ولكن ماذا؟!
- الحقيقة أنني استيقظت ليلة البارحة مفزعًا عندما سمعت رنين هاتف.
- ربما يكون هاتف منزلكم قد رنَّ.

ضحك صبر حتى رمى برأسه على طاولة المكتب، ثم تعالت ضحكاته حتى ضج المكان. وما لبثت ضحكاته أن تحولت إلى دوي هشم زجاج النوافذ، واقتلع الباب، واجتاحت المكان عاصفة هوجاء.

ارتعد زميله، وخرج مسرعًا متلبسًا بالخوف مما جرى، وراح يصرخ:

- لقد جن صبر.. جن صبر يا جماعة. جن المسكين صبر.

❀ ❀ ❀

عاد صبر إلى منزله مسكونًا بالخيبة والألم. بدأ سخطه ينصب على كل من حوله. انقلب حاله. لم يعد بوسعه أن يسامر أهل بيته أو يستلذ بمشاهدة التلفاز. بدأت تسكنه حالة من الهواجس، ويتخيل ما لا وجود له، رغبة في وجوده تارة، وفي عدم وجوده تارة أخرى. تداعت ذكرياته بما يشبه الضيق والقرف. تذكر أنه في مرة أحس بتقزمه، بالعدمية تجتاحه عندما كان عدم وجود هاتف سببًا في تهميشه، في هدم صدقيته كإنسان. يذكر أنه في مكتب لتأجير السيارات، ملأ نموذج

استئجار سيارة: الاسم، المهنة، العمل... وترك خانة الهاتف خالية. راجع الموظف البيانات المدونة وقال:

- كم رقم هاتفك، يا أستاذ صبر؟
- ليس لدي هاتف.
- غير معقول!!
- صح، غير معقول. ولكنني اكتشفت أنه من المعقول أن لا يكون لديك خط هاتف.
- أنت تبالغ، يا أستاذ صبر. على أية حال من أجل إكمال البيانات تحتاج إلى هاتف أحد أقربائك.
- آسف، ليس لدي أقرباء في هذه المدينة.
- في أي مدينة أخرى؟
- متأسف أيضًا. أهلي يسكنون في قرية نائية عن الحضارة.
- طيب، هاتف أحد أصدقائك.
- أصدقائي ليس لديهم هواتف أيضًا.
- هاتف أحد جيرانك!
- سكنت أخيرًا في عمارة جديدة لا أعرف سكانها.
- إذن هاتف العمل، هل لديك هاتف في العمل، يا أستاذ صبر؟
- نعم، ولكني لا أذكر رقم هاتف العمل.

قال الموظف وهو يشعر بحالة ضيق ورثاء لهذا الماثل بين يديه:

- متأسف، لا أستطيع أن أعطيك سيارة.

تساءل صبر: ماذا بوسعه أن يفعل أكثر مما فعل؟ لقد عرض ثمن استئجار السيارة مقدمًا، وأبرز رخصة قيادته، وبطاقة الهوية، وبطاقة العمل، ولكن كلها لم تغن عن رقم الهاتف!

❀ ❀ ❀

مع مرور الوقت تحول رنين الهاتف، أي هاتف، إلى طنين دائم، يخرم أذنيه. وصبر الذي حفيت قدماه بحثًا عن هاتف، الآن يهرب من رنينه. ضايقه الرنين حتى غدا بائسًا لا يقوى على شيء. تغيرت حاله حتى عد نفسه مريضًا، بل مهووسًا. قادته قدماه إلى سيد العارفين. طلبًا للخلاص.

قال له سيد العارفين:

- ادخل.

دخل وأجلسه أمامه. أشعل سيد العارفين بخورًا كسا وجه الغرفة حتى غطى ضوءها الشاحب. قال له سيد العارفين:

- ما داؤك، يا فتى؟
- كان لي حلم، يا سيد العارفين.
- ما حلمك، يا فتى؟
- أن يكون لي حقي!
- حقك قد لا يكون بيدك يا فتى.
- سلمتُ بذلك، يا سيد العارفين.
- ما هي شكاتك، أيها الفتى؟

- أشكو من حال ليس بحالي فقط، ومن وجع ليس بوجعي فقط، ومن ركض ليس بركضي فقط.
- همك هم الناس، وهم الناس همك، يا فتى.
- المشكلة أنني أبحث عن الخلاص مما أريده، من حقي.

دنا منه سيد العارفين، أخذ بيده، وأدخله في سرداب مظلم. أشعل الضوء. أحضر كرة من كريستال ما إن لمسها حتى أضاءت. أجلس صبر أمامه، وقال: حدق إلى الكرة. وقبل أن يبدأ بإدارة الكرة، أطفأ الضوء الذي أشعله. انبثق شعاع حاد من جوانب الكرة مالبث أن خفت. أخذت صورة ما بداخل الكرة تنجلي. قال صبر بدهشة الجاهل:

- ما هذا، يا سيد العارفين؟
- هذه كرة فيها سيرة الأرض والعباد فيما مضى، وفيما هو كائن، وفيما هو آتٍ.
- أرني ما هو كائن من أحوال الناس، يا سيد العارفين، أبقاك الله، وزاد حلمك وعلمك، وجعل لك من اليقين ما ينفع الناس أجمعين.

ورأى صبر صفًا طويلًا من الناس وقد أعياهم الوقوف. كان الواقفون يضعون قطعًا من القطن في آذانهم. وبعضهم كان يدير رأسه يمينًا وشمالًا بشكل يؤكد تألمهم من شيء ما. تعجب صبر، وتساءل ما إذا كانت حالتهم هي حالته نفسها؟ وأخذت الكرة في الدوران حتى رأى هؤلاء الناس وقد بُترت آذانهم. وما تعجب له أكثر أنه رآهم في حالة من الرضا. فلم يعد يشغلهم

وضع قطع القطن في آذانهم، ولم يعد لهم من قلق يدفعهم إلى تحريك رؤوسهم يمنة ويسرة. قال صبر وهو في حالة ضيق مما رأى:

- فظيع ما أرى، يا سيد العارفن.
- هذا قليل من كثير، يا فتى.
- ولكنني لست على استعداد لأن أفقد أذني بعد، يا سيد العارفين.

❀ ❀ ❀

وخرج صبر أكثر صبرًا على بلائه.

1997

مدى الحلم

في البدء حَلِمَ بنافذة تكون مشرعة للضوء والهواء. وفي مرة أخرى حلم بباب له مفتاح يعلقه في سلسلة معدنية، لكنه تساءل: ألا يحتاج الباب إلى جدار؟! ثم ألا تحتاج النافذة إلى جدار أيضًا؟! اعترف بأهمية الجدار بالنسبة إلى النافذة والباب، لكنه وجد أن الجدار يحتاج إلى جدران أخرى. ولما أيقن بضرورة الجدران في تشكيل حلمه الذي يصبو إليه. وجد أن الجدران بحاجة إلى أرض تقف عليها. إذن هي الأرض التي تنقصه لبناء حلمه. في صباح باكر، كان يخطط ويحفر ويرفع البنيان عاليًا، لكنه وجد من يمنعه من الاستمرار في إتمام حلمه. وتساءل: لماذا يُمنع؟! ولما عاود حلمه في البناء كُفت يده بقسوة متناهية. شعر بتضاؤل الحلم، بانكماش الانتماء في داخله. وضاقت به الأرض بما رحبت. وزاد ضيقه حتى عد نفسه بلا حاضر ولا مستقبل.

وذات مساء سأله طفله ببراءة:

- أبي متى سيكون لنا بيت؟
- قريبًا، إن شاء الله.
- متى؟
- إذا وجدت الأرض.

- وكيف ستجدها؟
- إذا حضر المال.
- وأين المال؟
- ليس معي.
- بعض الرجال معهم.
- الله أعطاهم.
- كلهم؟!
- بعضهم؟!
- لا أدري.
- أنا معي بعض النقود، وأعرف من أين جاءت؟
- من أين، يا ولدي؟
- وفرتها من مصروفي.
- أنت بطل.
- وأنت ألست بطلًا، يا أبي؟
- أنا بطل أيضًا.
- لكن ليس معك نقود مثلي.
- معي ما يكفي حاجتنا.
- ولكنك لا تستطيع أن تبني لنا بيتًا.
- سأبني بيتًا في المستقبل.

- بلا مال؟!
- لابد من المال.
- ومن أين يأتي المال، يا أبي؟
- من العمل.
- ولكنك تعمل طوال النهار.
- واجب، يا ولدي.
- ولكن لا مال لك!
- أنت تساعدني عندما تكبر.
- كيف؟!
- تعمل وتوفر من دخلك.
- أنا لن أعمل، يا أبي.
- لماذا؟!

جارنا لا يعمل.؟

هذا شأنه.

- ولكن لديه بيت ومال كثير.
- هذا شأنه.
- من أين جاء بالمال إذن؟!

وعند هذا الحد مشى الأب بحركة آلية قاطعًا على ابنه سيل الاستجواب البريء المؤلم. وتهاوى الأب في فراشه كحطام إنسان متهالك، متعب القلب والجسد. وراح في خدر

النوم اللذيذ. رأى أنه يُجرّدُ من ثيابه. وكانوا يخيّرونه بين استعادة ثيابه وبين الرحيل عن مسكنه، بل ناسه ووطنه. في البدء عدها مداعبة سمجة، لكن صرامة وجوههم ألغت أي احتمال للملاطفة. وأبعد من ذلك فقد أرغموه على البوح بكل أسراره. ولما قاومهم ركلوه وضربوه، ثم قادوه إلى سجن مظلم. وزادت ظلمة سجنه حتى استفاق من نومه مفجوعًا من بؤس الكابوس. وأجال نظره في الغرفة الضيقة، فإذا الأجساد التي يعرفها، متلاصقة، عارية إلا من أسمال بالية. وعد استسلامهم للنوم ولذته مرحلة مؤقتة. وربما يأتي يوم يكدون ولا يعيشون. وداخَله شعور بأن قيمة العمل، التي يحاول أن يغرسها، بدت هشة لا معنى لها. ها هو يعمل في وظيفته الصباحية. وفي المساء يلغي راحة جسده. يذرع شوارع المدينة بسيارته الخاصة، التي وفر ثمنها على حساب زوجته وأطفاله، بحثًا عن رزق إضافي. وتساءل أيهما أقسى، الواقع أم الكابوس؟ الواقع الذي يتطابق في قسوته مع الكابوس، أم الكابوس الذي يفرض الاستسلام والفجيعة وضياع الأمل.

1996

الوجبة الثالثة

عندما وضعوه في الزنزانة، أخبروه أنه سجين من نوع خاص. لم يستطع أن يجادل في الأمر. استسلم لمصيره. بدأ يتحرك في محيط ضيق يكتنفه ظلام دامس. حدق حتى شعر أن عينيه تقفزان من وجهه. تخيل نفسه بلا عينين. ضحك من مرارة اللحظة. كانت عيناه توغلان في الظلام. لا شيء إلا هو والظلام. ميَّز الأشياء من حوله باللمس. تعرف على موقع صنبور الماء والكوب. تعرف على المرحاض. تعرف على السرير. أما الاتجاهات فلم يميزها. ظل يجادل نفسه حتى ضجر واستكان في رحم الصمت. مع الأيام، بدأ يعتاد النظام من حوله. ثلاث مرات في اليوم، ينزلق من تحت عتبة الباب طبق زهيد، بارد، بلا رائحة. مع مرور الوقت، لم يعد انزلاق الطبق شيئًا مفرحًا أو استثنائيًا في يومه المكتنز بالضجر.

❀ ❀ ❀

دار في ذهنه أن يقيس أبعاد الزنزانة. بدأ القياس مستخدمًا الخطوة، ثم الذراع، ثم القدم، ثم الشبر، ثم الأصابع، ثم... بعد أن استنفد كل احتمالات القياس، لم يعلم على وجوه اليقين أبعاد الزنزانة.

❀ ❀ ❀

بدأ يعاني فقدان الإحساس بالزمن. اهتدى إلى طريقة أبهجته. قرر أن يحتفظ كل يوم بكسرة من الخبز المقدم مع وجبة اليوم الثالثة. هكذا تسنّى له أن يضع زمنًا خاصًا به. ففي ظل انعدام النور، قرر أن تكون إحدى الوجبات هي الثالثة، ومن ثم بنى احتمالات الوقت على هذا الافتراض. شغلت هذه العملية ذهنه ووقته، وجعلته يتعلق بمستقبل ما، ربما فقط مستقبل الوجبة الثالثة.

للمرة الأولى منذ نزوله هنا، قرر أن يتنصت على حارسه. اقترب من الباب. سمع هسيس أقدام متباطئة، جعلته يقرر أن صاحبها رجل بدين. وفي فترة أخرى، عاود هواية التنصت، سمع وقع خطوات أشد خفة ورشاقة. كان هذا الاكتشاف كفيلًا بأن يشكل في نفسه حب معرفة المحيط الخارجي. أخذ يربط تغير وقع الخطوات بنظام الوجبات، حتى تيقن أن الأقدام ذات الهسيس تحرسه ما بين الوجبة الأولى والوجبة الثالثة. أما الأقدام ذات الخفة والرشاقة فتحرسه ما بين الوجبة الثالثة والوجبة الأولى، أو هكذا استطاع أن يخمن.

❀ ❀ ❀

مع الأيام، تجمع لديه كم هائل من كسر الخبز اليابس الذي دأب في جمعها وعندما غطت بقايا الخبز أرضية الزنزانة بأكملها حتى حاذت ارتفاع سريره، فكر في كيفية الخلاص منها. ليس هناك إلا طريقة واحدة. نعم، أن يفتح الحارس باب الزنزانة. قرر أن ينادي الحارس:

- يا حارس.. يا حارس، أنا صاحبك المسجون. هل نسيتني؟!

أنصت منتظرًا الرد. لا شيء سوى هسيس أقدام الرجل البدين. انتظر حتى تغير وقع الأقدام. نادى بصوت ملؤه الرجاء:

- يا حارس.. أنا صاحبك بالداخل منذ أمد لا أعرفه. افتح، لي حاجة عندك.

لا أحد يجيب. تملكه يأس فظيع. ماذا عساه أن يفعل؟! وبعد طول تفكير هداه عقله أن يبني جدارًا موازيًا لأحد جدران الزنزانة. وهكذا يستطيع أن يحافظ على معرفة الوقت دون أن يعيش محاصرًا بكسر الخبز اليابس. على الفور جد في عمله. أسس قاعدة عريضة من كسر الخبز. نهض جدار عريض من كسر الخبز. عندما ارتفع البناء مقدار منتصف جدار الزنزانة تقريبًا ارتقى فوقه. جفل فجأة. اضطرب، تحسس بيده تجويفًا مربعًا. صرخ مندهشًا:

- رباه، نافذة صغيرة!

تساءل ما إذا كان بوسعه أن يفتحها؟ خاف من عاقبة مجهولة لفعله. لكنه قرر أنه لن يخسر شيئًا أكثر مما خسر. فتحها. تخنجر ضوء النهار الحاد في عينيه. أغمض عينيه سريعًا. لم يستطع أن يفتح عينيه للوهلة الأولى. عانى كثيرًا حتى عوَّد نفسه رؤية الضوء. فتح عينيه تدريجيًا، ثم أرسل بصره بشوق إلى الحياة. يا له من عالم مغاير لما يعيشه. رأى فيما رأى شارعًا عريضًا يموج بالبشر، رأى الحوانيت متراصة على

الجانب المقابل لزنزانته. رأى مقهى مزدحمًا في منتصف الجهة المقابلة للزنزانة. استهواه منظر الزبائن. حركة نابضة بالحياة. عشق هذا المتنفس الجديد. لم يكن يبرحه إلا لمامًا. كان يتابع بنظراته المارة بدأب منقطع النظير. رأى فيما رأى رجلًا يتشاجر مع امرأة، ثم يفترقان. رأى قصابًا يتمايل مع أغنية ساذجة تنم عن طبقته الاجتماعية. رأى جماعة تشاهد التلفزيون، فجأة تصرخ بصوت واحد: هدف. رأى رجلًا يوقف سيارته أمام محل ملابس مطلعًا بوق سيارته. خرجت امرأة من المحل غاضبة. ركبت وكانت يدها تلوح نحو وجه السائق. رأى امرأة تترجل من سيارة أجرة، تنقد السائق وتتصرف في حركة استفزازية محرضة. يتبعها شاب متأنق. تشتمه، لكن الشاب يلاحقها، رأى فيما رأى تصادم سيارتين يستجلب الناس والشرطة والضجيج.

عندما رأى الشرطة، وارب النافذة قليلًا، وأخذ يختلس نظرات خائفة.

1998

حدَّثني كَثيبٌ قال

هذا الجنوبيُ..

يعرف كم للفجر من معنى،
ويعرفُ أن الأرض تولد حين تشرق
شمسُها.
ويعرف ليلى، ومتن سيرتها،
ويعلم أن المدى حلمٌ
وأن الصبر مر

❀ ❀ ❀

وهذا بخيتٌ..

حين لم يُحسن الصمتَ
غيبوا صوتَه.
يومها جاءت الأبوابُ تحمل أقفالَها
ورجالها،

وتوزع الحيطان ذاكرةً
وتعاويذ في وجه الطفولة

❀ ❀ ❀

أيا رَهوان..

أمازلتَ تبحثَ عن حظٍ وعن أمل!
سيان ـ يا رهوان ـ حين لا تجدُ الطريق
وحين تصرخ:
يا سيد الأبواب.. لا توصد الأبواب
ويأتي رجع صوتك كالغبار، متبعثرًا في حلمه،
مترقبًا صوت المحدِّث يسرد بعض ما عانى الرجال!

حسن النعمي

عنوان الكاتب
ص.ب: 80026
جدة 21589
السعودية